
ابو الحسن علي الحسني الندوي
العَرَبْ والإسْلام
المكتب الاسلامي

الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ بيروت

الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ بيروت

بيروت : ص.ب ١١-٣٧٧١ هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيًا: إسلاميًا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف :١١١٦٣٧ - برقيًا: إسلامي

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

أما بعد فهذه محاضرات ومقالات كتبت وألقيت في مناسبات مختلفة ، وفي أمكنة وأزمنة مختلفة ، تجمع بينها وحدة معنوية وغاية مشتركة ، تتغلب على اختلاف الزمان والمكان . وتنوع أساليب البيان ، وهي إثارة الشعور الإسلامي ، أو إيقاظ الروح الإسلامية في نفوس العرب الذين أصبح كثير منهم بفعل عوامل كثيرة في حاجة إلى ذلك من مدة قصيرة ، وهو إثارة كريم عريق في الكرم وتحريك أريحيته للمكارم والبطولات ، وهو إيقاظ أسد غلبه النعاس أخيراً ليحتل مكانه الطبيعي في الغابة ، وحاشا أن يكون تعليم جاهل ، أو إقناع جاحد .

اختار الله العرب للإسلام لخصائص طبعية ومزايا خلقية ينفردون بها ، وقد قال عن بني إسرائيل أولاً : (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُم عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ) [الدخان : ٣٢]

وقال عن النبي العربي ﷺ آخراً : (اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَه) [الانعام : ١٢٤] .

وقد بحث في هذه الخصائص الباحثون ، وكتب في موضوعها المؤلفون ، وقد أثبت العرب الأولون حكمة هذا الاختيار بفهمهم العميق لطبيعة الإسلام ، وإساغتهم الكاملة لتعاليمه ، وتجردهم النادر عن كل ماينافيها ، وحماستهم — المنقطعة النظير — في نشر الإسلام ، وتفانيهم الغريب في إعلاء كلمته ، ورفع شأنه ، وأمانتهم الدقيقة في حفظ روحه ونفسيته ، ونجاحهم المدهش في تسخير القلوب والعقول لقبول عقيدته وثقافته ، فكانت القيادة الإسلامية كما قال الشاعر العربي أبو العتاهية عن الخليفة المهدي :

أتَتْهُ الخِلافَةُ مُنْقَادَةً إلَيْهِ تُجَرِّرُ أذْيالَهَا
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إلا لَهُ ولَمْ يَكُ يَصْلُح إلا لهَا[1]

عقد الله بين العرب والإسلام للأبد ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، فلا عز للعرب إلا بالإسلام ، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلا إذا قاد العرب ركبه وحملوا مشعله ، وقد حرص رسول الله ﷺ على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدس بين العرب والإسلام ، فجعل جزيرة العرب[*] مركز الإسلام الدائم وعاصمته الخالدة ، وحرص على سلامة هذا المركز ، وهدوئه وشدة تمسكه بالإسلام ، لأن العاصمة يجب أن تكون بعيدة عن كل تشويش ،

---

(١) ديوانه : ص٦١٢ طبع جامعة دمشق بتحقيق الدكتور شكري فيصل .

(*) في القاموس : وجزيرة العرب ما أحاط بها بحر الهند وبحر الشام ثم دجلة والفرات ، أوما بين عدن الى أطراف الشام طولا ، ومن جدة الى ريف العراق عرضاً.

وعن كل فوضى، وعن كل صراع، فشرع لذلك أحكاماً بعيدة النتائج واسعة المدى، وأوصى لذلك وصايا حكيمة دقيقة، وأخذ لذلك من أصحابه وأمته عهوداً ومواثيق، وقد ذكرت ذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقالت: كان آخر ماعهد رسول الله ﷺ أن قال: «لايترك بجزيرة العرب دينان»[1] وعن أبي رافع: «أن النبي ﷺ أمر أن لاندع في المدينة ديناً غير الإسلام إلا أخرج»[2] وعن جابر بن عبد الله يقول: أخبرني عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً»[3].

وأخذ بذلك الخلفاء الراشدون المهديون، فكانوا ينظرون دائماً إلى الجزيرة العربية كمعقل للاسلام، ورأس مال الدعوة الاسلامية، وقد جاء في وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لخليفته: «أوصيه بالأعراب خيراً فانهم أصل العرب ومادة الاسلام»[4]

وظل العرب والاسلام زميلين مترافقين، وأخلص كل منهما للآخر، وأقسم أن لا يفارقه، وكانا كما قال الشاعر العربي الأعشى بن ميمون الأسدي:

رَضيعَي لِبانِ ثَدْيِ أمٍّ تَحالَفَ بِأسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لانَتَفَرَّقُ

وعاش العرب وعزوا بالاسلام وسادوا الدنيا، وانتشرت لغتهم وثقافتهم في بلاد وأقطار وبيئات لم تكن تنتشر فيها وترسخ قدميها

(١) رواه أحمد في «المسند» والطبراني في «الأوسط»
(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه.
(٤) الجامع الصحيح للإمام البخاري كتاب المناقب.

لولا الاسلام ولولا القرآن، واتخذها العلماء والأذكياء لغة دين وعلم وتأليف، لم يكونوا فاعلين ذلك لولا أنها لغة الاسلام الرسمية ومفتاح المكتبة الاسلامية، وقد حمل كثيراً من علماء بلاد العجم وأئمتها ممن ولدوا ونشأوا في هذه الديار حبهم للعرب وفقههم للدين على أن يتعربوا في كثير من عاداتهم وشاراتهم، ويحافظوا على اللغة العربية وآدابها ويتواصوا بذلك، ويجعلوها كلمة باقية في أعقابهم، ويحذروا من تقليد العجم والتخلق بأخلاقهم، وما ذاك إلا للحب العميق الراسخ للنبي ﷺ وأصحابه، ولأنه ظهر في العرب، وارتضى الله لهذا الدين المظهر الابراهيمي العربي في الأخلاق والآداب والميول.

وقد جاء في وصية أحد كبار أئمة الاسلام في بلاد العجم مايدل على ذلك دلالة واضحة. قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ هـ في رسالته التي أسماها «المقالة الوضية في النصيحة والوصية»:

«نحن رجال غرباء هاجر آباؤنا إلى الهند، وإن عربية النسب وعربية اللسان مفخرتان لنا، وهي التي تقربنا إلى سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين ومفخرة الوجود ﷺ، ومن شكر هذه النعمة العظمى ألا نتخلى بقدر الإمكان عن عادات العرب الأولين وتقاليدهم، الذين نشأ فيهم رسول الله ﷺ، ولا نسمح لتقاليد العجم وعادات الهنادك أن تنتشر بيننا».

ثم قال: «السعيد منا من حصلت له مشاركة في لسان العرب والصرف والنحو وكتب الأدب واطلع على الحديث والقرآن، ولا

بد لنامن حضور الحرمين الشريفين وتعلق القلب بهما وفي ذلك سر سعادتنا، والشقي من أعرض عنهما»[1].

وعاش الإسلام، وشق طريقه إلى الأمام، وتغلب على الصعوبات وانتشر بسرعة غريبة – لا تزال موضع الدهشة والاستغراب – لجهاد العرب وحماستهم لنشره وحسن معاملتهم للمفتوحين، فكان كل عوناً لصاحبه، ومصدر قوته وعنوان مجده.

ولم يشوش هذا الصفاء والوفاء إلا حوادث كان مصدرها أشخاص وأغراض، ولكنها جنت على هذه الوحدة الميمونة، منها حركة الشعوبية الغالية الحرقاء التي قام بها بعض علماء العجم في القرن الثالث الهجري، الذين لم تنشرح صدورهم للاسلام، ومنها غطرسة بعض العناصر غير العربية، وإساءتهم إلى مركز العرب وبخسهم لنصيبهم الشرعي، وقد ثارت لهما النخوة العربية بطبيعة الحال كرد فعل طبيعي لهذا الظلم، ولكن مالبث الايمان الراسب في أعماق نفوس العرب وحب الاسلام المتغلغل في أحشائهم أن تغلبا على هذه النزعة الطارئة، ولم نقرأ في التاريخ حركة منظمة أو فلسفة مدونة نستطيع أن نسميها «فكرة القومية العربية» وبقي العرب يعيشون بالاسلام وللإسلام، وبقي تاريخ كل منهما متصلا بتاريخ الآخر، متداخلا بعضه في بعض.

وبقي الوضع هكذا إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وقد بدت في الأتراك – الذين كانوا يحكمون الشام[2] والعراق

(١) «المقالة الوضية في النصيحة والوصية» بالفارسية طبع دهلي ١٢٦٧ هـ.

(٢) الشام بجميع أقسامه أو سورية الطبيعية، وهي تضم ما يسمى اليوم: سورية – فلسطين – الأردن – لبنان – الإسكندرون – الموصل –

والحجاز – الكبرياء القومية وبدأ كثير من حكامهم يعاملون الشعوب العربية ، واللغة العربية معاملة تشبه أحياناً كثيرة معاملة المستعمر للمستعمَر ، وبدت منهم القسوة والجفاف والغطرسة في مناسبات كثيرة ، رغم إغداقهم الأموال الكثيرة على الحجاز ، وتقديس الحرمين الشريفين ومن يسكنهما ، ورغم النظر إلى الشعب العربي نظر إجلال ديني وروحي ، ولم يظهر منهم من التسامح وسعة النظر ورقة الذوق واحترام حرية الرأي وتشجيع الثقافة والميول والرغبات البريئة في الشعوب العربية ما كان يتوقع من شعب حاكم يعيش في هذا العصر القلق المتطور ، وما كان يستحقه العرب بصفة خاصة كشعب ممتاز ، وكشعب كان مصدر الدعوة الإسلامية وحاول بعض حكامهم – السفهاء الغلاظ – القضاء على الشخصية العربية ، كل ذلك أثار في العرب النقمة والنخوة العربية ، وفي لفظ مؤلف قومي عربي :

« الوجدان القومي العربي بدأ يستيقظ في نفوس أفراد من العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وأول ما بدا ذلك في ديار الشام ، مهدوا بالقضاء على الحكم الأجنبي –التركي– يومئذ وعلى الإقليمية.[1] »

« وقد تزعم هذه الحركة وقادها بعض المسيحيين ، الذين لم تكن تربطهم بالأتراك رابطة العقيدة والدين المتينة ، ورابطة الإخاء الإسلامي ، وكانوا مثقفين الثقافة الغربية التي تقوم على تمجيد القومية ، وكان من زعمائها الأولين الدكتور فارس نمر ، والشيخ

(١) «قضية العرب» لمؤلفه علي ناصر الدين ص : ٧٣ .

ابراهيم اليازجي، والأستاذ نجيب العازوري اللبناني[1] » .

ثم نشبت الحرب الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م وسنحت للأقطار العربية فرصة الانشقاق على الامبراطورية العثمانية ، وانتهز الحلفاء هذه الفرصة الذهبية ، فنفخوا في قربة القومية ، وقام لورانس الداهية بدوره[2] ، فأشعل الحماس القومي ، وأثار العرب على الأتراك ، وثار الشريف حسين في الحجاز ، وأهل الشام في الشام وفضلوا الانضمام إلى راية الحلفاء ، الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، ولا يراعون في مسلم عهداً ولا حرمة والذين كان يقودهم الإنجليز المجرمون الذين تلطخت أيديهم وتلوث تاريخهم بأبشع الإجرامات ضد الإسلام والمسلمين ، فضلوا كل ذلك على البقاء في جوار الأتراك المسلمين الذين رفعوا راية الإسلام في اوروبا خمسة قرون وأرهبوا أعداء الإسلام ، وكانوا على علاتهم رمز قوة الإسلام وشوكته ، وتناسوا نصوص القرآن والسنة القطعية التي تحرم موالاة أعداء الإسلام ضد المسلمين والقتال في صفهم ، واعتمدوا على الوعود الخلابة والسياسة المنقلبة التي لا تعرف إلا المصلحة ، ولا تعبد إلا القوة . وكان من قيام الحكومة العربية الهاشمية في سورية ، ثم نقض الحلفاء للعهود وتجاهلهم لها بتاتاً ، وانهيار هذه الحكومة السريع ما علمه الجميع .

ثم جاء دور مفهوم القومية العربية التي هي فكرة مستقلة وفلسفة بذاتها ، لها كل ما للدين من حمية وحرارة وشعائر ومقدسات ،

---

(١) « قضية العرب » لمؤلفه علي ناصر الدين ص : ٧٣ .

(٢) انظر لمزيد التفصيل : Lawrence of Arabia By : Erik Lonnroth

فخضع لها العرب المثقفون – خصوصاً الشباب – الذين ضعفت صلتهم بالدين لأسباب كثيرة ، ونشأت فيهم الرغبة الشديدة لنيل المجد والعظمة في أقرب وقت ، ومجاراة الشعوب الحرة الراقية في مضمار المدنية والتقدم ، ولم يجدوا لذلك سبيلاً – بزعمهم – إلا « القومية العربية » ونشأ فيهم اليأس والتذمر من الأوضاع القائمة واليأس من الأمم الغربية التي خلقت اسرائيل ولاتزال تعطف عليها وتتبناها أكثر مما تعطف على قضية العرب ، فالتجأوا إلى القومية العربية كرد فعل عنيف وثورة فكرية .

ولم يقفوا عند هذا الحد ولم يقتصروا على استخدام القومية للدفاع والتنظيم ، كما زعم كثير من دعاتها بل غلوا في تقديس القومية العربية والتغني بها ، وإنكار كل ما عداها ، وجعلوها عقيدة وديانة يتغنون بها ويحاربون كل ما سواها ، ويحتقرون شأن الدين ويقللون قيمته يمثله خير تمثيل ما قاله أحد مفسري الفكرة القومية ، وبعض من كتب في قضية العرب في العصر الحديث ، يقول الكاتب وهو يعبر عن أفكار كثير من زملائه :

« القضية العربية لن تكون أبداً عند العربي المؤمن الحر العاقل ، الشريف ، الصالح ، الخير الأبي المترفع إلا قضية ايمان ، ايمان بالوطن للوطن ، كقضية الايمان بالله لله ليس غير »[1] .

ويتكلم عن مهمة قضية العرب وأهدافها فيقول :

« وتحارب الجهل والفقر والمرض والظلم وكل عصبية إلا العصبية

(١) مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب « قضية العرب » للأستاذ علي ناصر الدين بيروت ١٩٦٣ م ص : ١٩

القومية ، وتفصل الدين عن السياسة ، وتحرم على رجال الدين الاشتغال بها ، وتعلم العربي أينما كان أن يتعصب بعنف لأمرين قوميته والحق »[1].

ويشرح الكاتب « العروبة » في بيان واضح ولفظ صريح فيقول:

« العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين ، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها - أي العروبة - إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات ، وفضائل وحسنات »[2]

ومما يدل على أن « القومية العربية » قد أصبحت في نظر كثير من دعاتها والمؤمنين بها ديانة إزاء ديانة ، وعقيدة مقابل عقيدة ، مقال لكاتب قومي آخر ، جاء في « مجلة العربي » عددديناير ١٩٥٩م.

« ومن معانيه الأولى وحدة لكل من تسمى به من أهل هذه الأرض ، والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين » .

ويقول الكاتب الأديب المصري المشهور الأستاذ محمود تيمور :

« لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة . . . إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي .

ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة وتكتيل الجبهة والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة .

وان كتاب العرب في أعناقهم أمانة ، هي أن يكونوا حواريين

---

(١) مجلة العربي أيضاًص : ٢٥ .

(٢) أيضاً هامش ص : ١٣٨ .

لتلك النبوة الصادقة ، يزكونها بأقلامهم ، وينفخون فيهامن أرواحهم ويعملون على أن تتكتل لها أسباب النماء والازدهار »[1] .

ويؤثرونها ويفضلونها على الوحدة الإسلامية ، ويرونها أسهل تحقيقاً وأقرب منالاً وأعظم قوة وأكثر انتشاراً ، يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله في مقاله « القومية العربيـــة كما ينبغي أن نفهمها » :

« إن الساسة اليوم ينادون بالقومية العربية ، وتحقيق الوحدة العربية أقرب منالاً من تحقيق الوحدة الإسلامية ، إن مصلحتنا اليوم في تحقيق هذا الهدف القريب ، ثم ان الفكرة العربية أكثر انتشاراً وأوسع نفوذاً من الفكرة الإسلامية ، إنها تشمل سكان العالم العربي جميعاً ، أما الإسلام فلايشمل هؤلاء السكان ، لقد تعرب سكان هذه البلدة أجمعين ولم يسلموا أجمعين ، إنه لا يزال منهم النصارى ولا يزال منهم اليهود »[2] .

ويبالغ بعض الكتاب في تمجيد العروبة ولزومها حتى يشكون في إسلام من تجرد عنها ، ويعتقدون أنه نقص في الإسلام ، يقول الأستاذ علي ناصر الدين :

« في رأينا أنه يصعب جداً أن يكون مسلم غير عربي مسلماً كما أراد الإسلام ورسوله أن يكون بمجرد أنه ولد من أبوين مسلمين ،

---

(١) مقال الأستاذ محمود تيمور في مجلة «العالم العربي» عدد ٢٧١ بعنوان « النثر والقومية العربية » .

(٢) « مجلة العربي» الكويتية العدد الأول ديسمبر ١٩٥٨ م ص : ٢٤ .

بل ينبغي له ليكون كذلك مع ما ينبغي أن يصير عربياً بلسانه وثقافته وميوله »[1]

هذا الأسلوب من التفكير ، الذي لا يرشح إلا عن عقيدة وفكرة قد رسخت واختمرت ، ليس إلا صدى القومية الغربية اللادينية وهي التي نخاف منها على الإسلام ، ونعتقد أنها تنافس الإسلام في مركزه وقوته عند العرب ، وتزدهر وتقوى وتستفحل على حسابه ، وتحبط مساعي دعاة الإسلام الأولين ، وتقطع صلة العرب عن مصدر عزهم وقوتهم محمد ﷺ ودعوته ورسالته أولاً ، ثم عن العالم الإسلامي والشعوب الاسلامية ثانياً ، وتصرفهم عن التفكير في مصير العالم الإنساني وتولي قيادته برسالة الإسلام أخيراً [2] ، وتجعل من العرب — الأمة العالمية التي أخرجت للناس — شعباً محدوداً ضيق التفكير يعيش في نفسه لنفسه ، وينشر فيهم الإلحاد واللادينية .

---

(١) هامش « قضية العرب » ص : ٣٩ .

(٢) — من المؤسف الغريب أن يفكر العرب القوميون في دائرة القومية العربيـــة ويحصروا نشاطهم وكفاحهم في دائرة الشعوب العربية ، وأكثرهم وقادتهم مسلمون ديناً وعقيدة ، ويفكر الشيوعيون الملحدون في دائرة الإنسانية ويعتنون بطبقاتها الكادحة وبالعمال والفلاحين في كل بلد وصقع ، وقد تجلى هذا الاختلاف في أسلوب التفكير في حفلة اتحاد نقابات العمال العرب في القاهرة ١٦ من مايو (مايس) عام ١٩٦٤ حيث قال ضيف مصر خروتشوف رئيس وزراء روسيا وزعيم الشيوعية العالمي معلقاً على كلمة الرئيس جمال عبدالناصر : « إن سيادة الرئيس يلح على الوحدة العربية ، ونحن الروسيون بالعكس ، نفكر في قضية الوحدة في معان أوسع ، إننا لا نؤسس الوحدة على تصور القومية ، إننا نؤسسها على قوة الطبقة الكادحة » .

إن العرب المسلمين كانوا أولى وأجدر بالتفكير العالمي وعنايته بصالح الإنسانية وسعادتها على أساس العقائد والقيم الإسلامية ، وكانوا أحق أن يكونوا « عالميين » و« إنسانيين » ولكنها طبيعة « الفكرة القومية » لا تسمح بالخروج عن دائرتها الضيقة ولا تدع مجالا للنشاط أو الحماسة لمصلحة عالمية واسعة .

وقد ظهرت طلائعه في مقالات الكتاب القوميين والأدباء القوميين ومن نماذجه الرائعة ما كتبه الكاتب القومي المعروف الدكتور أحمد زكي في « مجلة العربي » الشهيرة ، وصدر به أول عدد لمجلته. يقول الدكتور :

والمجلة « العربي » لا تصل معنى العروبة بدين ، فكل الناس عباد الله ، وكل سالك إليه سبيلا ، والسبل اختلفت والغاية واحدة ، والحي يسعى لتأمين الحياة ، وبالدين هو يسعى لتأمين مابعد الحياة. والتجربة الإنسانية عبر القرون الدامية دلت على أن الدين — وهو سبيل الناس لتأمين ما بعد الحياة — ذهب بأمن الحياة ذاتها ، فلم يبق عاقل مفكر ، يتمسك بحرية الفكر التي هي هبة من هبات الله ، إلا يقول دعوا الناس لتسلك إلى الله أي طريق تشاءُ ، وحتى غير السالك « أي اللاديني » عليه وحده تبعة أنه لا يسلك ، لا على الناس »[1].

وهكذا قال عمر الفاخوري قديماً في كتاب له سماه « كيف ينهض العرب ؟ » :

« لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم ، والمسيحيون الكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم ، والبروتستانت على تعاليم لوثر الإصلاحية ، وثوريو فرانسا في عهد الرعب على مبادىء روسو الديموقراطية ، ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك »[2].

---

(١) أول عدد من مجلة « العربي » .

(٢) نقلا عن كتاب « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » للأستاذ محمد المبارك ، هامش ص ٤٠٧ .

وقد أصبح العرب المسلمون في ذلك فريسة سهلة لدهاء الأقلية غير المسلمة في الشرق العربي التي يتوقف مصيرها على انتشار فكرة القومية العربية ، وحلولها محل الدين الإسلامي ، والتي تستطيع أن تصل عن طريقها إلى مركز الزعامة والقيادة والتوجيه في العالم العربي ، وتستطيع أن تفصل بها العرب عن بقية العالم الإسلامي الذي لا ترتبط به هذه الأقلية عقيدة وعاطفة وتاريخاً ، ولا يزال ميشيل عفلق (المسيحي ولادة) مؤسس حزب البعث العربي ورئيسه فيلسوفها الأكبر في الشرق العربي [1] .

أعتقد أن طبيعة العرب اختمرت مع الدين الإسلامي ، وامتزجت به امتزاجاً لا يسهل فصلهم وتجريدهم عنه ، وبالرغم من أنه خضع لفكرة القومية عدد كبير من الشباب المثقفين واحتضنوها وحملوا رايتها ؛ فإن الجمهور من العرب لا يزالون شديدي الحب للاسلام ، لا يعرفون ما عداه ولا يهتزون لسواه ، وهو الذي حملهم على أعظم التضحيات في الريف وفي الجزائر وفي معركة السويس ، وأشعل فيهم الحماس ، وأكسبهم النصر في قضاياهم .

وإن الطبيعة العربية الإسلامية ستثور وتتمرد ، وتنفض الغبار الذي تراكم عليها والتراب الذي التصق بها ، وتنفي الطارئ الجديد الذي تطفل عليها ، وإن الجذوة الايمانية لا تزال كامنة تحت الرماد ، متهيأة للالتهاب والاتقاد بأدنى إثارة وأقل تحريك ، وإن الأيمان فيهم

---

(١) إقرأ كتابه «في سبيل البعث» .

أصيل عميق الجذور لا يستطيع أحد أن يجتثها او يقتلعها، وإنهم في طريق انتفاضة ايمانية إسلامية ووثبة قد آن أوانها وحان زمانها .

وبهذا الأمل الوطيد، وبهذه الثقة نقدم هذه المجموعة إلى إخواننا العرب .

المجمع الإسلامي العلمي
ندوة العلماء لكهنو (الهند)

ابو الحسن علي الحسني الندوي



مِنَ العَالَم إلى جَزيرَة العَرَب (*)

فرصة سعيدة يا جزيرة العرب ، لي معك اليوم حديث خطير قد خبأته لك من زمان وصرفتني عنه خطوب ونوائب شغلت خاطري إلا أن هذا الحديث قد ملك اليوم قلبي وثقل على نفسي فلم أر اليوم بداً من أن أفضي به إليك ؛ وأتنفس مما أجده من الضيق والألم .

زهدني في هذا الحديث ما كنت أراه من انسحابك من الحياة وتنزلك عن القيادة التي تبوأتها زمناً غير يسير ، وما كنت أراه من رغبتك في العزلة عن العالم وما يقع فيه من حوادث ، ومايتجدد فيه من شؤون ، وكرهت أن أزعجك وأقلق بالك وقلت : لقد رقدت الجزيرة بعد سهر طويل سهرته في مصلحتي ، واستراحت بعد عناء كبير تحملته في سبيلي فلا ينبغي لي أن أوقظها وأقض مضجعها ، ولكن الخطب كان أجل من ذلك وأعظم ، ولم أر مفزعاً بعد الله إلا إليك وقلت : لقد وجدت في هذه الجزيرة غوثاً ونجدة قبل ثلاثة عشر قرناً ، وقد أحيط بي يومئذ ، فعسى أن أجد فيها فرجاً وروحاً مرة ثانية .

(*) أذيع هذا الحديث من دار الاذاعة السعودية بمكة المكرمة عام ١٩٥٠ .

أراك أيتها الجزيرة العزيزة تنظرين إلى نفسي نظرة الحياء، وتلقين على نفسك نظرة الازدراء، تنظرين إلى تقدمي في الصناعة والاختراع، وإلى تسخير الإنسان للبخار والكهرباء، وتسخير الطاقة الذرية في الزمن الأخير، وتقولين في شيء من الخجل والاعتراف، وفي شيء من الجراءة والشجاعة: لقد تقدم العالم بعدما خرج من حضانتي تقدماً مطرداً وقطع أشواطاً بعيدة في العلم والمدنية، هوني عليك أيتها الجزيرة فإن هذا الإنسان الطائر في الهواء، العابث بأمواج الأثير لا يزال طفلاً صغيراً في أخلاقه وفي شعوره الاجتماعي، وفي عناده وقصور نظره وأثرته، وايثاره الصور والأشكال على الحقائق والمعاني وافتتانه بالمهازل والملاهي، فلو علمت أيتها الجزيرة ما وراء الأكمة لهان عليك الخطب. وعلمت أن الإنسانية لا تزال حيث خلفتها، وأن الإنسان وإن أصبح يطير في الهواء كالطير، ويسبح في البحار كالسمك، فإنه لا يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان.

أراك أيتها الجزيرة تنظرين بدهشة واستغراب إلى معاهدي العامرة وإلى مكتباتي الزاخرة، ومطابعي المتدفقة، وحركة التأليف والنشر القوية، وإلى هذا الأدب الخصيب الذي يطلع كل يوم بشيء جديد ولكن لا تعجلي، إن روح هذه الحركة التجارة والاستغلال، وإن كثيراً من حملة الأقلام يتاجرون بأخلاق الناس وضمائرهم، ويحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع وتروج بضاعة الخلاعة والاستهتار، ولا تستغربي إذا حدثتك أن كبار المثقفين والأدباء عندي لا يفضلون في الأخلاق والصبر على مكاره الحياة والعزوف عن الشهوات وإنكار الذات على الأعراب الذين يضرب بهم المثل في الجفاء والجهل والأمية.

أراك أيتها الجزيرة تصغين إلى الكلمات الرنانة التي تلوكها ألسنة السياسيين، وترددها أقلام الصحفيين كالعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والجمهورية ، كأنك تسمعين كلمات لها معنى وتطبيق في الحياة كما حدثت العالم من قبل بكلمات صادقة يوم كان اللفظ دليلاً على معنى ويوم كان الإنسان يرى نفسه مأخوذاً بقوله. . . هيهات لقد تقدم الزمان وأصبح كثير من الكلمات لا يقصد بها معنى ولا تراد بها حقيقة ، فرحم الله من اعتمد على الكلمات ورحم الله من صدق أهلها فيما يقولون .

أراك أيتها الجزيرة تنظرين إلي فتغبطينني على ما تعتقدين عندي من صفاء وسرور وراحة ونعيم وهدوء وسلام ، لقد استسمنت يا هذه ذا ورم، أنا جسم قد علتني أورام غير طبيعية فظنني الجاهل صحيحاً سليماً مع أني مريض دنف أشكو في كل عضو من أعضائي أوجاعاً وأوصاباً ، أشكو في قلبي وجعاً وفي رأسي صداعاً وفي عيني رمداً وفي دمي نزفاً وفي نفسي اختلالاً ، تارة أصاب بطوى وجوع تكاد تزهق له نفسي ،وأخرى ببطنة وتخمة تكاد تقضي علي وتقتلني وقد اجتمع حولي متطببون ومشعوذون يعالجونني بالأمراض ويداوون الداء بالداء ، وبعمليات جراحية خرقاء ،لقد قتلوني قتلهم الله ، عالجوا مشاكل الاقتصاد بحركة منع الولادة ، وسوء التصرف في المال بتحريم الملك الشخصي ، واستبداد الأشخاص باستبداد الأحزاب واحتكار الأفراد باحتكار الشركات . . . والرأسمالية الجائرة بالاشتراكية المرهقة ، والاشتراكية العمياء بالجمهورية العوراء، لقد داووا جوراً بجور وظلماً بظلم وإسرافاً بإسراف وجهلاً بجهل وعلة بعلة ، فزادوني مرضاً على مرض وضعفاً على ضعف .

إليك جئت أيتها الجزيرةالعربية بما معي من أدواء وأوجاع وقد فضحت أمامك نفسي وكشفت سري فهل تغيثيني وتسعفيني كما أغثتني بالأمس وأنقذتني من الموت الأحمر، فلست اليوم بأقل حاجة إلى إسعافك وإنجادك من يوم بعث رسولك وأشرق علي نورك !!

لا تغرنك أيتهاالجزيرة مني مظاهر المدنية الجوفاء وهذه الطائرات المحلقة في الهواء وهذه الناطحات للسماء، وهذه الآلاتالتي ملأ صوتها الفضاء، فيسهل علي أن أتخلى من كل هذا ومن كل كنوزي وأتنازل عن كل ما تنظرين إليه نظر الغبطة والطمع وأستبدل بها ما قد فقدته من الايمان الذي جاءت به الأنبياء والرسل، والذي فقدت معه قوتي وحرارتي وشخصيتي وروحي، وأصبحت جسداً ميتاً قد يطفو على الماء وقد يحمله الهواء.

نفسي فداؤك يا جزيرة العرب خذي مني ما شئت من سيارات وقطر وطائرات وماكينات وآلات و زخارف وأدوات، وتصدقي علي بهذا الايمان الذي لا أجده في أسواقي ولاتنتجه مصانعي على كثرة ما تنتج وعلى غرابة ما يخرج منها، ولم أكتسبه من مكتبتي الواسعة، ولا يفيدني إياه فلاسفتي ومفكري و كتابي وزعمائي إنما أفاده العالم «أمي» لا يزال في أحضانك، فعاش هذا العالم بعد ما كان ميتاً وأبصر بعدما كان أعمى، وتماسك بعدما كان متزعزعاً ولم يصب أحداً شيء من هذا الايمان إلا عن طريق هذا النبي الأمي ولن يصيب أحداً إلى آخر الأبد إلا عن طريقه، لذلك جئتك سائلاً فلا تنهريني ولا ترديني خائباً!

أنا أيتها الجزيرة حائر تائه قد تكدست عندي آلات وأدوات

ووسائل ما عرفت كيف أصنع بها وكيف أستعملها، فإني إلى الآن لم أعرف ما غاية هذه الحياة وما نهايتها ومن خالق هذا الكون ولأي شيء خلقه وما مركز هذا العالم وما روح هذه الحياة ؟ ! وماهذه الآلات والمصنوعات بل ما هذه القوى المودعة في هذا الكون وهذه الخيرات المنبثة على الأرض إلا كسراً من كسور هذا العالم الكبير، فمن كان حائراً تائهاً في هذا المجموع الكبير كان خليقاً بأن يكون حائراً تائهاً في كسوره خابطاً في استعمالها ، قد يستعملها في خير وقد يستعملها في شر ، وطالما يستعملها بلا غاية ، والغايات لا طريق إلى معرفتها إلا الأنبياء والمرسلون ، أما المكتشفون والصناع فإنما موضوعهم الآلات والصناعات ، ولما تفردت بالوحي تفردت بالغايات ولما عنيت بالصناعة والاكتشاف تفردت بالآلات والمصنوعات وبانفصالنا شقيت الإنسانية فهلمي يا مهد الايمان ويا مهبط الوحي نتعاون على سعادة الإنسانية وصالحها فأنجدي العلم والصناعة بالغايات والروح والايمان ، وأنجدي الدين بالآلات والوسائل ، حتى تسير الإنسانية رشيدة الغاية سديدة الخطى ، على جناح السرعة والقوة ، فبك تستفيد صلاح الغاية وصحتها ، وبي تستفيد سرعة الوصول إلى هذه الغاية الرشيدة .

جودي علي أيتها الجزيرة بنفحة من نفحات محمد ﷺ أحل بها مشاكل حياتي وألغاز مجتمعي ، وأحيي بها موات قلبي وأطفىء بها جحيم المادة التي أحاطت نيرانها بهذه المدنية وبكل فضيلة إنسانية ، وقد هبت نفحة منك في القرن الإسلامي الأول فحولت هذا العالم الفسيح من جحيم إلى نعيم ، وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الله

نبيــه ، فعودي على هذا العصر بنفحة جديدة تنفخ فيه روحاً جديدة وتبعث هذا العالم بعثاً جديدا !

إنك تجودين علي أيتها الجزيرة العربية بمقدار عظيم من البترول أدير به ماكيناتي وأسير به عجلاتي ، فأنا أدين لك بالفضل وأشكر صنيعك ولكــني كنت أنتظر منــك – أيتهــا الجزيرة السعيدة يا مولد نبي الرحمة – شيئاً أعز وأثمن من الذهب الأسود ، كنت أنتظر منك أن تخرجي لي عجلة الحياة التي غاصت في الوحل ، وأن توجهيها التوجيه الصحيح وأن تخلصي ركابها من هذا المأزق ، فقد عجزت حكمة الحكماء وصناعة الصناع من إخراجها فأخرجيها بما معك من حكمة النبوة وبقية قوة الرسالة والايمان واليقين ، وسيريها بنور الشريعة الإلهية والهداية الإسلامية !

وفي الأخير أقول: إنك ياجزيرة العرب قطعة مني يصيبك خيري وشري ويصيبك لفحي ونفحي ، ما يمكنك أن تعيشي منعزلة عني فإن أدركتني وأصلحت شؤوني فإلى نفسك أحسنت، أو لا ، فعليك وعلى أهلك جنيت ! .

مِن الجزيرة العربية إلى العالم

مساء الخير أيها العالم ، لقد سمعت كلمتك الرقيقة التي تنم عن إخلاص وصدق وحب ، وقد خاطبت يوم خاطبتني جزءاً منك وعضواً حياً من أعضائك يشعر بشعورك ويتألم بألمك ويشاركك في السراء والضراء وفي الشدة والرخاء .

لقد ذكرتني بذكرك القيادة العالمية عهداً كلما تذكرته تحركت أحزاني وهاجت شجوني ، لقد كنت كما تعرف جزيرة منعزلة عن العالم لا أسترعي نظراً ولا أشغل بالاً ولا ترفع برجالي رأساً ولا تعيرهم شيئاً من العناية ، يقول رجالك المتمدنون إذا سئلوا عنهم : أعراب من جزيرة العرب رعاة إبل وسكان وبر وأصحاب فصاحة ، لا يعرفون الحضارة والمدنية والعلوم ؛ بينما بلغت المدنية أوجها في بلادك الرومية والفارسية ، وبينما كنت تزخر بالبضائع والأبنية الشامخة والعلوم والحرف .

ولكن – من غير مؤاخذة – لقد انطفأت شعلة الحياة في جسمك وفقدت حرارتك الغريزية وقد ضاعت سالة الأنبياء في ترف الأغنياء وبؤس الفقراء وجور الأمراء ومطالب الحياة وتكاليفها التي لم تترك فراغاً في القلب ، وسعة في الوقت ، وبقية في الصبر ، حتى أصبحت لا يوجد في إقليم واسع منك من يفكر في الآخرة ويهتم بدينه وغاية حياته ، وقلما يوجد في قطر من يعبد ربه .

وقد كنت في غير تواضع مصاباً بأدواء خلقية واجتماعية ودينية، وبما تزري بأدوائك وعيوبك الاجتماعية ، ولكن كانت لاتزال في جمرة من الحياة، صبر على المكاره، وثبات على المبدأ واستماتة في سبيل العقيدة، واستهانة بالحياة والمادة، وبساطة المعيشة إلى غير ذلك ممايليق بأمة نيط بها جهاد طويل عريض .

نظر الله إليك وهو العليم الحليم الخبير، فرأى كل ما يرضي السياحين ويسر المتفرجين من زهو المدنية ، ولا يرضي الذي خلق العالم لغاية ، وخلق الخلق لعبادته ، ونظر إلى أمم الأرض ، فعمد الى أحطها معيشة ، وأخملها ذكراً ، وأقواها على حمل الأمانة ، فاختارها لرسالته ، وابتعثها الى هذا العالم المنهار .

أرسل إلي رسولا ولدته أم القرى وعاش في أحضاني بين سمعي وبصري فإذا هو قرة عين الانسانية وجمال الدنيا ، وعلى جبل من جبالي في يوم لم أعرف خطره أكرمه بالرسالة وبعثه إلي ليكون للعالمين نذيرا، واختار له رجالا أنجبتهم ولكن لم ألق لهم بالا ولم أحسب لهم حساباً، ولكنهم أثبتوا قيمتهم وكفايتهم، أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً وأعلاهم همة، وأثبتهم جناناً وأقواهم إيماناً، يالهم من عباد ليل وأحلاس خيل .

هنالك نهضت بروح غير الروح، وبقوة غير القوة ، هي روح الرسالة وهي قوة الايمان، وفاجأتك بحماسة وسرعة لا عهد لك بهما، فانه لا عهد لك من قديم الزمان بالايمان بقوته فنظرت إلي شزراً وظننتني من الغزاة الطامعين والملوك الطامحين وظننت أني خرجت لمصلحتي ، ودافعي الجوع والفقر وقلة الموارد، فعرضت

علي مايشبع جوعة الزاحفين ويرضي الملوك الطامعين فاذا الأمر بالضد وليس الدافع إلا الشفقة عليك والحرص على إنقاذك من داهية الوثنية وشرور المدنية، فوقفت في سبيلي من غير جدوى وقاومتني من غير نتيجة، فلم تزل قوتك المادية تتحلل وتذوب أمام حرارة الايمان وقوة الروح حتى وضعت أوزارك واستسلمت للقضاء الواقع، ولما زالت عنك دهشة الفتح أقبلت على رسالتي تدرسها وتتفهمها ، فاذا هي خير الدنيا والآخرة، وإذا هي رسالة السلام والعلم والعقل وإذا هي أساس المدنية ومعراج الانسانية، فآمنت بها بلاد ودانت بها أمم، فأحلت لها الطيبات وحرمت عليها الخبائث ووضعت عنها إصرها والأغلال التي كانت، ومنحتها الامامة في العلم والدين، والسيادة في الحكم والسياسة .

وهنالك – لاأخفي عليك – وقعت كارثتي ، بل كارثة العالم فقد ألهتني هذه الفتوح الواسعة والغنائم الزاخرة، والكنوز العظيمة والمدنية الباهرة، التي لم يكن لي بها عهد، فأطفأت شعلتي وأخمدت حماسي وبردت روحي، وابتلعت إيماني ووقع لرجالي ماأخبر به نبيهم ﷺ : « ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » فأصبح رجالي غير الرجال أجسام كأجسامهم الأولى بل هي أروع ، وملابس كملابسهم السابقة بل هي أفخر، ووجوه كوجوههم بل هي أشد نضارة وطراوة، ولكن أرواح باردة ونفوس خامدة وقلوب خاوية : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] .

هنالك اعتراني كسل وفتور وإعياء، ورأيت الاعتزال عن معترك الحياة فاني لا أطيقه فرجعت أدراجي وانطويت على نفسي، لقد كان اعتزالي عن الحياة رزيئة إنسانية عامة وكارثة عالمية عظمى، فقد بقيت الأمم قطعاناً من الغنم لا راعي لها، وبقيت القافلة وقد جد بها السير وغاب عنها الخريت.

هنالك خبطت الأمم في مدنيتها وعلومها وصنائعها وسياستها، وهنا كانت مصيبتك فقد اكتشف لك المكتشفون وعلماء الطبيعة القوى الهائلة والوسائل الجبارة، وسخروا لك البخار والكهرباء والماء والهواء، وكرسوا لك العلوم والحكم، ولكن استخفوا بالروح وهزأوا بالإيمان، وأهملوا تربية الأخلاق فأصبح تقدمك معوجاً وجاءت نهضتك الأخيرة نهضة هوجاء خرقاء، وكنت كشجرة برية تمتد فروعها وتطول على غير نظام وعلى غير نسق فهذا ذاهب إلى اليمين وذاك إلى الشمال وهذا وجد متسعاً فطال وهذا تضايق فقصر، أو كولد ينشأ في مغارة دب أو جحر ذئب يجمع بين حدة الأظفار وقوة الساعد، وشراسة الأخلاق وصغر العقل.

لأجل ذلك وقع ماتشكو منه من تضخم الآلات واضمحلال الغايات، وسوء التصرف في القوة والخبط في العلم وفساد أخلاق المثقفين ونهامة الأدباء والمؤلفين وكذب الصحفيين وتزوير الزعماء والسياسيين وخرق الأطباء والمعالجين، وما تشكو منه من علة الروح واضطراب للقلب وانزعاج النفس فان هذا كله – سامحني أيها العالم – من لوازم حضارتك وعقليتك التي خلعت ربقة الدين واستغنت عن هدي الأنبياء والمرسلين وأسست حياتها على القياس والتخمين، وعبادة المادة والقوة والشهوات.

ولو رأى أحد حضارتك في تكوينها لتنبأ بمثل هذه النتائج وأنذر منها كما يرى الانسان بذرة فيتنبأ بثمرتها، لقدسرتني شجاعتك أيها العالم باعترافك بالإفلاس في الايمان وأن مصانعك لا تنتجه، وأنه لا يوجد في أسواقك ولا عند علمائك، وأن مصدره هو الرسول الأعظم الذي يستنكف من اتباعه فلاسفتك وحكماؤك وأكثر منهم قادتك وزعماؤك، فلا تستحي أيها العالم المتنور واحرص على هذا الايمان وكن جاداً في طلبه مهما كلفك من التواضع والتعب، فانك بدونه جسد بلا روح وبيت بلا نور .

لا تعرض علي مصنوعاتك من سيارات وزخارف وأدوات فقد أخذت منها الكفاية وفوق الكفاية، بل أريد أن أشكو إليك أن سياراتك قطعت خيلي العتاق التي كان يضرب بها المثل في الخفة والأمانة والوفاء والغناء في الحرب، وقد أغرقتني زخارفك ومصنوعاتك بالبذخ والتبذير والراحة والكسل والاتكال على الآلات، فضعفت الأجسام ووهنت القوى وتعطلت أيد عاملة وانصبت دماء أجسامنا في أجسام غيرنا، فاسترد مني فضول مدنيتك لعلي أستعيد بعض قوتي ونشاطي وأخلاقي التي كنت فيها مضرب المثل.

لقد أعيتك أيها العالم معضلات مدنيتك وألغاز مجتمعك وإنها لتتحدى تشريع المشرعين وجهود المصلحين فتعجزها، فاطرح عنك أيها العالم الكبر والحياء وأقبل على هذا الكتاب الخالد الذي جاء به محمد ﷺ واستفته وارجع اليه في ما ينوبك من الحيرة والعجز، وادرسه ككتاب لا عهد لك به من قبل وقد نزل اليوم ليرشدك ويأخذ بيدك، وانظر كيف يحل لك عقدة بعد عقدة ومعضلة بعد معضلة من حياة الفرد إلى حياة المجتمع، وفي السياسة

والاقتصاد وفي المدنية والأخلاق، ويمنحك مبادىء ودعـائم تؤسس عليها المدنية الصالحة وتجمع بها بين سعادة الدنيا والآخرة إن هذا الكتاب المعجز يخاطب اليوم فلاسفتك وزعماءك بما خاطب به رجال القرن السادس المسيحي :.

(قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يهدِي به اللهُ مَن اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخرِجهُم مِن الظُّلُمَاتِ إلى النّوْرِ بِإذْنِهِ ويهدِيهم إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[المائدة : ١٥ — ١٦] .

غلبتك المادة أيها العالم فجئتني لا ترغب إلا في ماأحتوي عليه من كنوز الثروة والقوة ولا يهمك إلا مايجري في بطني من عيون البترول فأعطيتك سؤلك وأشبعت نهمتك، وإنما يعطى السائل على قدر همته وقد جئتني اليوم تسأل أعز ماعندي وأنفع للإنسانية، تسألـني الارشـاد والتوجيه فأهلا بك وسهلا أيها الزائر الكريم ودونك المنهل العذب الصافي من الدين السماوي ومن الوحي المحمدي الذي احتفظت به طول هذه المدة فارتو منهماشئت واستق منه الايمان واليقين ومبادىء الحياة السعيدة والعلم الصحيح والعمل الصالح والخلق المستقيم والاتجاه الصحيح في كل عمل وحركة وفي كل دقيقة وجليلة، ذلك الاتجاه الذي لا يكون إلا بالايمان بالله وبرسله واليوم الآخر والحساب والعقاب، تشرب هذه المبادىء من هذا المعين الصافي واستمد منه الحياة والقوة والشباب والرسالة، وأطلع عالماً فتياً مشرقاً يخلف العالم الشائب المظلم العليل الذي قد فقد الروح والحياة والشباب، وأصبح لا يحمل رسالة للانسانية .

أحييك يا مصر (*)

أحييك يامصر بتحية الاسلام، وأحيي فيك الزعامة للعـــالم العربي، الزعامة التي كانت عن جدارة واستحقاق، لا عن احتقار واغتصاب، وإنك تحلين اليوم في العالم العربي محل السمع والبصر، ومحل العقل والفكر، رضي به الناس أم لم يرضوا، ولكن الواقع لا ينكر.

أحيي فيك يامصر نفاق سوق العلم، ورواج بضاعة الأدب، وتقدير رجال العلم والفن، فقد أنجبتهم واحتضنتهم ودافعت عنهم، وحدبت عليهم، فهم أبناؤك البررة وأنت الأم الحنون.

أحيي فيك الأزهر الشريف الذي كان ولا يزال المنهل المورود في الدين والعلم للعالم الاسلامي، والذي لا يضارعه ولا يزاحمه في تقدم السن وطول العمر وامتداد الظل وكثرة الانتـــاج معهد أو جامعة على وجه الأرض.

أحيي فيك المكتبة العربية التي فاضت وامتدت كالنيـــل وأصدرت كتباً ومطبوعات عربية لو وضع بعضها فوق بعض لكانت مثل الأهرام أو أرفع.

(*) كتب هذا المقال بمناسبة زيارة الوفد المؤلف لمصر عام ١٩٥١، ونشر في مجلة «الرسالة».

أحيي فيك غيرتك على اللغة العربية، وجهادك في إحيائها ونشرها، ورفع شأنها وتوسيعها ، حتى أصبحت بجهود أدبائك وكتابك، وبفضل الصحافة المصرية والحياة السياسية، وبفضل حركة التأليف والترجمة والنشر، وبفضل المجمع اللغوي ؛ لغة راقية عصرية علمية سياسية فنية لا تقل في غزارة مادتها وقابليتها لتعليم العلوم العصرية والطبيعية والرياضية عن أية لغة من لغات الغرب .

أحيي فيك عدداً مشرفاً من الأدباء والكتاب ، فيهم الكاتب المبدع ، والمترسل القدير ، والأديب الفنان ، والباحث الناقد ، والعالم الضليع ، والمؤرخ الأمين ، والفيلسوف الحكيم ، والمحدث اللبق ، والروائي المصور ، والمتهكم اللاذع ، والمضحك المطرب ، والمصلح المنتقد ، والشاعر المطبوع ، والسياسي المناقش ، والصحافي البارع ، إذا كتب أحدهم في موضوع ردد العالم العربي صداه وافتخر المتأدبون بتقليد أسلوبه والنسج على منواله، واحتجوا به كما يحتج بشعر القدماء .

أحيي فيك يامصر هذا وغير هذا ، ولكن لي معك اليوم شأناً آخر ، إن لي معك كلاماً أرجو أن تلقي إليه سمعك ويشهد به قلبك فأنا ضيف قد نزل بك ، ومن حسن الوفادة وتمام الضيافة الاستماع إلى كلام الضيف والإقبال عليه بالسمع والقلب .

إن مسؤوليتك يامصر أوسع وأعظم من تأدية رسالة الأدب وخدمة لغة العرب ، وما تجودين على الأقطار العربية الشقيقة برشحات الثقافة الأوروبية وفتات المدنية الغربية ، إنك بين آسيا

وأوروبا فأنت ملتقى الثقافتين ومجمع البحرين، إنك وسط بين مهد الاسلام ومشرق نوره ؛ وبين مولد الحضارة الغربية ومبعث العلوم العصرية، فعليك مسؤولية القارتين، وعندك رسالة الثقافتين.

فأما مسؤولية آسيا والأقطار العربية فلا تخرجين منها يامصر حتى تكوني قنطرة تعبر عليها إلى البلاد العربية تجارب أوروبا وعلومها ونشاطها وكدحها في الحياة وجهادها للبقاء، هنالك تقومين برسالتك ووظيفتك لهذه البلاد العزيزة، التي ترتبطين بها برابطة دينية و روحية وثقافية وسياسية .

وأما مسؤولية أوروبا فلا تخرجين منها حتى تبلغي رسالة الجزيرة العربية — وهي الاسلام الذي احتضنته من زمان — إلى أوروبا، وحل المشاكل التي أعيت كبار المفكرين وأتعبت عظماء المشرعين، وبذلك تؤدين واجبك المقدس نحو هذه القارة الأوروبية التي استوردت منها شيئاً كثيراً من العلم والمصنوعات والمنتجات، ونظمت عليها مدنيتك وحياتك تنظيماً جديداً، وتحسنين إليها أكثر مما أحسنت إليك وتصدرين إليها أفضل مما صدرت إليك .

إنك يامصر قد بنيت القناطر الخيرية فانتظم الري، وازدهرت الزراعة وأخصبت البلاد ؛ وأريد أن تبني قنطرة خيرية أخرى هي أكبر القناطر في العالم وأنفعها، تصل بين بحرين لم يزالا منفصلين، وبين حضارتين لم تزالا متنافستين، وبانفصالهما وتنافسهما شقي العصر الجديد، فلو أنك وصلت بينهما وكنت قنطرة تتبادل بها القارتان خيراتهما ومحاسنهما ؛ وفرت على الانسانية جهوداً وأوقاتاً كثيرة وصنتها من الضياع، كما أن قناطرك الخيرية وفرت على مصر مياهاً كثيرة ونظمت أمور الري .

لقد كان حفر قناة السويس أكبر حادث في التاريخ العصري غيّر مجرى التاريخ وأحدث انقلاباً في السياسة والتجارة ؛ولكن من يستطيع أن ينكر أن شقاء الأمم الشرقية كان أعظم وأعظم من سعادتها، وأنها لم تجن من قناةالسويس إلا عبودية واستعماراً،والعالم الآن في حاجة إلى قناة أخرى، قناة التعارف الصحيح والتبادل المتوازن ، وإليك وحدك يامصر القيام بهذه المبرة العظيمة لمكانك الجغرافي وأهميتك السياسية وثروتك الثقافية ومركزك الروحي، تعلمين أن دولة لا تتزن ميزانيتها، ولا تتحسن أحوالها الاقتصادية، إلا إذا وجد توازن بين حركة التصدير والتوريد، وكان تصديرها أكثر من توريدها، ولكننا في الشرق نورد أكثر مما نصدر ، كانت قناةالسويس أكبر مطية من مطايا هذا التوريد، فلا نريد قنطرة أو قناة تكون معبر البضائع الأجنبية من أفكار وآراء وفلسفات وأخلاق إلى أعماق الشرق وأحشائه، بل نريد قناة تساوي بين التوريد والتصدير، وتصدر أفضل ما عند الشرق الإسلامي من رسالة وعقيدة وخلق وعلم ، وتورد أحسن ماعند الغرب من منتجات ومصنوعات وتجارب واكتشافات ومرافق الحياة ، فكوني يامصر تلك القناة الأمينة العادلة التي لاتسمح بالمرور إلا للصالح الفاضل .

إن لك يامصر يدين، فخذي من الغرب مافاق فيه من علم وتجربة، فالحكمة ضالة المؤمن،ومدي إليه يداً أخرى، يد المساعدة والكرم، وجودي عليه بما أنعم الله عليك من نعمة الايمان وشرف الإسلام فذلك الذي لا يملكه الغرب ولا يستغني فيه عنك، وقد انتهى به إفلاسه فيه إلى ما ترين من فوضى وانحلال فتصدقي

عليه بهذا الايمان ورسالة الروح، ولا تنسي أبداً أن اليد العليا خير من اليد السفلى .

كوني يامصر رسول الإسلام إلى الغرب، واحملي إليه رسالة محمد ﷺ ، تلك الرسالة التي حملها العرب إلى الأمة الرومية والأمة الفارسية فأنقذتهما من مخالب الموت وأفاضت عليهما ثوباً قشيباً من الحياة ولوناً جديداً من النشاط ، وليس الغرب أقل حاجة إلى هذه الرسالة وهو في دور التفكك وتنازع الموت والحياة من الأمة الرومية والفارسية إليها، وقديماً اختار الملوك وأصحاب الرسالة السماوية رسلا من عشيرتهم والأقربين إليهم، ولك من إبراهيم وإسماعيل ومحمد ﷺ رحم ماسة وقرابة خاصة ليست لقطر من الأقطار الإسلامية بعد الجزيرة العربية .

إن أوروبا قد شاخت ونضجت كالفاكهة التي أدركت وضعف الغصن عن حملها، فاستعدي يامصر الإسلامية لتحلي محلها في الزعامة العالمية وقيادة الأمم، وما ذلك بعزيز ولا بمستحيل، إذا تم استعدادك الروحي والخلقي والمادي، وإذا كانت أوربا قد احتفظت بالقيادة العالمية هذه المدة الطويلة وليست عندها رسالة عامة للانسانية ولا دعوة مخلصة لأمم العالم وعندها كل مايضعف ثقة العالم بها من وطنية وعنصرية وتقديس للنسل الآري وإدلال باللون الأبيض، ونزعة تجارية واستعمار، فكيف لا يرضى العالم بقيادتك وعندك الرسالة التي تضمن سعادة العالم كله، ودين لا يفرق بين الأوطان والعناصر والألوان ؟

إحرصي يامصر على رجولـــة أبنائك وأخلاقهم ، وصوني

شبابهم وشرفهم ودينهم وصحتهم من أن يعبث بها العابثون او يتجر بها المتجرون ممن يعيشون على أثمان الأعراض والأخلاق ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لتروج بضاعتهم وتزدهر تجارتهم، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة والصور العارية والأدب المكشوف، فإنك يامصر في محل الزعامة والقيادة للشرق الأوسط، وفي طريقك إلى الزعامة والقيادة للعالم الإسلامي، ولا تأتي الزعامة والسيادة إلا بعد الاستقامة والثبات في مزالق الإنسان، والنجاح البارز في امتحان العفة وطهارة الأخلاق، واذكري قصة يوسف التي مرت على أرضك، ووقعت بين سمعك وبصرك كيف ثبت في الامتحان، وكيف حافظ على دينه وعفته، فكانت نتيجة ذلك الثقة والاعتماد والسيادة والملك، واقرئي إن شئت:

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)[يوسف: ٥٦] .

بل ولا حياة ولا شرف إلا بالرجولة والأخلاق، فكيف وأنت في ميدان القتال وساحة الجهاد، فلا بد أن تحفظي وصية قائدك الكبير سيدنا عمرو بن العاص وتذكري ماقال لخلفائه في أرضك: «واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم» .

فكافحي يامصر الوباء الخلقي الذي يقضي على حيوية الأمة أشد مما تكافحين وباء الكوليرا الذي يقضي على حياة بعض الأفراد، وطاردي كل من يحاول أن يزعزع العقيدة في شعبك، ويزلزل

الإيمان ويفسد الخلق، أشد مما تطاردين من ينشر الوباء أو يسبب الأمراض أو ينقل إلى أرضك المكروب، فلم نسمع أن الأمة العظيمة ماتت وبادت بسبب وباء أو مرض، وأن اليونان اجتاحهم مرض من الأمراض، ولكنا قرأنا في التاريخ وشهدت أنت أن هـــذه الأمم كانت كلهـــا فريسة التفسخ الخلقي، والأمراض الاجتماعية، فاحذري يامصر — صانك الله وحرسك — هذا المصير المؤلم .

إن العالم العربي قد أحلك يامصر من نفسه محلا رفيعاً ووضع ثقته فيك وفتح لك أذنيه وعينيه، فاتقي الله يامصر فيمن ائتمنك ووثق بك في نفسه وعقله، ولا تصدري إليه من أدبك ومطبوعاتك مايرزأه في إيمانه وأخلاقه وقوته المعنوية وروحه، كما لا ترضين ولا ترضى كرامتك ومروءتك أن تصدّري إلى زبائنك من الدول والبلاد الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ولا تقبلين أن يصدّرها إليك أحد، وصدقيني يامصر العزيزة لأن هذه الروايات الخليعة والأدب الماجن أفسد وأضر للأمة والحياة من الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة، إنك زعيمة للعالم العربي فلا تغلبنك النزعـــة التجارية ولا تغرنك المنافع المؤقتة، فلا يكون زعيماً ولا يكون عظيماً من يؤثر العاجل على الآجل، والمنفعة الفردية على المنفعة الاجتماعية، والأثرة على الإيثار .

إنك يامصر من أغنى بلاد الله ، ولست أعني بالغنى خصب الأرض وكثرة الموارد، وإنك لغنية فيها من غير شك، ولكني أعني غناك في المواد الخامة وهي الشعب الذي توفرت فيه المواهب

والقوى، خصوصاً مايسكن منه في أريافك، فهي المناجم التي لا تزال مدفونة، والمعادن التي لم تستخرج بعد، هذا الشعب قوي الإيمان قوي الشخصية، قوي الجسم، فلو أنك أحسنت تعليمه وتربيته وأفدت من هذا الإيمان و وضعته في محله لكان حارسك الأمين وجنديك القوي وثروتك العظيمة .

قد اختار الله لك يامصر قارة من أوسع القارات وأكثرها مواد خامة هي القارة الافريقية ولا يزال جزء كبير منها على سذاجته وفطرته ، ولا تزال فيها أمم على الجاهلية الوثنية، وعلى الجهالة والضلالة، ولا تزال فيها أمم كاللوح الصافي يكتب الإنسان فيه ما يشاء، وهذه الأجزاء من القارة ، وهذه الأمم خير حقل لجهودك وتربيتك، وخير أرض لزراعتك وغرسك، فارسلي إليها دعاتك المبشرين ورجالك المصلحين وعلماءك المرشدين وأبناءك المعلمين، يبلغونهم الدين ويتلون عليهم آيات الله ويعلمونهم الكتاب والحكمة. وبذلك تنقذين بإذن الله نفوساً كثيرة من النار، وتخرجينها من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها وتكتسبين قلوباً نقية وأرواحاً فتية وأجساماً قوية، ويكون ذلك خيراً لك من هذه الأمم والدول الغربية التي تخطبين ودها وتحرصين على صداقتها ، وهي لاتدوم على حال بل تجري وتدور مع أغراضها المادية ومصالحها السياسية، فيوماً هي معك ويوماً مع أعدائك، وإذا كانت معك لم تكن بإخلاص وصدق، وإنما هي المطامع والمصالح، وما أضعف الصداقة التي تقوم على المطامع والأغراض !

وأخيراً أريد أن أقول في أذنك يامصر إن لله في خلقه شؤوناً وإنه

أعظم غيرة من كل غيور ، وإنه لا يعطي نعمة دينه إلا من يعظمها ويجلها ويقدرها حق قدرها، فإذا رأى منك استغناءاً عن الدين وما ينبىء عن احتقار لشأنه، واستصغار لأمره وزهد في الإسلام، وانصرافاً عن خدمته وتقصيراً في أداء رسالته ، واعتزازاً لمبدأ غير الاسلام، وتشرفاً بغير محمد عليه الصلاة والسلام استغنى عنك ، على مآثرك السابقة وثروتك الضخمة ومدنيتك الفخمة : (سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) [الأحزاب: ٦٢]. وجاء لخدمةالإسلام وقيادة الأمم الإسلامية بأمة لم تخطر منك على بال، تعتز بالدين وحده وتتشرف برسالة الإسلام، وتتشبع بحب محمد عليه الصلاة والسلام، وتلتهب غيرة دينية وحماسة إسلامية وتجاهد في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم، وإن الله تعالى حذر العرب الأولين وقال لنبيه ﷺ:

(فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) [الأنعام: ٨–٩].

وقال للمسلمين العرب:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) [محمد: ٣٨].

ولله جنود السموات والأرض، وفي كنانة الإسلام سهام لم يرها أحد ولا تخرج إلا في وقتها، ومن يدري فلعل شمس الإسلام تطلع من المشرق، وهذه أمم إسلامية فتية على سواحل المحيط الهندي وفي جزره تتحفز للوثوب وتتهيأ لقيادة العالم الإسلامي،

فاحتفظي يامصر العربية بمكانتك ومجدك ولا تأمني دورة الأيام ولا تأمني مكر الله:

(فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاالقَوْمُ الخاسِرُوْنَ) [الأعراف:٩٩]

هذه تحيتي إليك يامصر العزيزة فتقبليها، وهذه آمالنا فيك فحققيها، وكلمة مُرّة في الأخير فتحمليها، وهذه معذرتي إليك فاقبليها، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.



اسمعي يا سورية [1]

أحييك ياسورية تحية من أحبك صغيراً، وعاش في ذكرياتك وأخبارك دهراً طويلاً، لقد سمع في طفولته ملاحم الإسلام، وفتوح الشام فعرف مدنك وقراك كما عرف مدن بلاده وقراهـــا ودرس في شبابه تاريخ الإسلام فرآك تشغلين منه مكاناً واسعاً، وتضعين إليه صفحات مشرقة لا يزال المسلمون يستمدون منها الإيمان، ولا يزال العرب يذكرون بها العهد الذي كانوا يحكمون فيه نصف المعمورة.

أحييك ياسورية تحية من نفسي وعقيدتي وضميري، فكـــل منها مايتنافس في تحيتك، وكل منها يدين لك بالفضل، فقد غمرت نفسي بالسرور والإيمان ببطولة من بذل نفسه وأراق دمه على أرضك، وقويت عقيدتي في انتصار الروح على المادة، والفضيلة على الرذيلة، وانتصار قوة الإيمان على قوة السيف والسنان، وقوة الأبدان، وكثرة الأعوان، وما اليرموك عنك ببعيد، وما يوم حليمة بسر، وأيقظت ضميري لفهم معان أسمى من السماء، وأعذب من ماء بردى، هي معاني الثقة بالله، وعلو الهمة في سبيل الله، والعطف على عباد الله، والعدل بين الناس، معان تجلت على

---

(١) أذيع هذا الحديث من دار الإذاعة السورية بدمشق.

أرضك وحواها تاريخك، فتحيتي لك ياسورية تحية النفس والعقيدة والضمير.

أحييك ياسورية عن نفسي، وأبلغك تحيات ملايين من البشر يسكنون وراء البحار، ويحنون إليك على بعد الدار.

لا تستغربي ياسورية العزيزة هذا العدد الضخم، فان على شواطىء البحر الهندي، و وراء جبال هملايا أمة كبيرة العدد، قوية العاطفة، صادقة الوداد، قد عرفتك قديماً، وأحبتك شـــديداً، وذكرتك كثيراً.

ذكرتك كلما أذن المؤذنون، وكلما دوى في الفضاء صوت «أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله» كلما سمعوا الأذان ذكروا مؤذن رسول الله، ذكروا بلالاً الحبشي، فذكروا به الشام الذي آثره بالإقامة، والاستراحة إلى يوم القيامة.

ذكروك كلما سمعوا ببطولة بطل، ومغامرة مقدام، ذكروا به بطل الأبطال «سيف الله خالد بن الوليد» الذي تبسم في وجه الموت وسخر بالمخاوف، ورمى بنفسه في كل معركة ظن فيها الشهادة فخرج منها ظافراً منتصراً، ذلك البطل الذي استهان بحياته فعزت، وهانت نفسه عليه فكرمت، هو الذي أذاقك ياسورية لذة الإيمان والعدل والرحمة والمساواة، ولا يزال في حمص رمز قوة الإسلام، ومفخرة الشام.

ذكروك كلما سئموا الظلم والخيانة، وحنوا إلى العـــدل والأمانة، وكلما رأوا حيفاً من الحاكمين وقسوة في الفاتحين ذكروا ذلك الفاتح الرحيم الذي كتب لأهل دمشق الأمان ورفع الحصار

ورد إلى أهل حمص ما أخذ منهم من الخراج بحجة أن المسلمين مشغولون عن نصرتهم والدفع عنهم بما يستقبلونه من حرب حاسمة في اليرموك .

إنهم ذكروك كلمـــا ذكروا «أمين الأمة» وكلما اشتدت الحاجة إلى قوي أمين، وفاتح رحيم، وكلما اشتدت الحاجة إلى قائد يجمع بين الشجاعة والرحمة، والبطولة والحكمة، والسياسة والدين، والشدة واللين.

ذكروك يا سورية كلما اشتغلوا بالحديث والفقه — وما أكثر من يشتغل في هذه البلاد بالحديث والفقه — وكلما مرت بأسماعهم أسماء حبيبة من صحابة الرسول ﷺ وقراء القرآن، ورواة الحديث وفقهاء الأمة، كلما مرت بأسماعهم أسماء معاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وسعد بن عبادة، وأبي بن كعب، وبحثوا عن مدافنهم فوجدوها في ربوعك وأحضانك .

يذكروك كلما وجدوا طرازاً واحداً من الملوك والأمراء والحكام والوزراء مهما اختلفت الألقاب وتنوعت الأسماء، وجدوا الأنانية والأثرة، والمحسوبية، والمحاباة، والعبث بأموال الشعوب والترف على حساب الفقراء .

ذكروا تلك الشخصية الفريدة الفذة التي فاجأت التاريخ وفاجأت الإنسانية في آخر القرن الأول الهجري، ولمع في أفقك يادمشق نور أضاء له العالم، واستقبلته الإنسانية، فقد عم العدل واتجه المجتمع إلى الدين والأخلاق، ووجد كل أحد مايحتـاج إليه ، وعمت الرفاهية وفقد الفقر المدقع، وبحث الناس عمن

يقبل الزكاة فما وجدوه، وخاف العصاة والمجرمون، وارتدع القساة والظالمون، تلك شخصية عمر بن عبد العزيز – سلام الله على عمر بن عبد العزيز – شخصيته كانت كوميض البرق وفلتة الدهر، لم يزل التاريخ يحن إليها، ولا تزال الإنسانية تصبو إليها وما من يوم إلا والانسانية إليها أفقر وأشد حنيناً، فلو لم تكن لك ياسورية حسنة سوى هذه الحسنة، ولو لم تنجب أرضك ياسورية غير هذا الوليد، لكفاك فخراً وكفاك فضلاً على الانسانية، وشرفاً على البلاد.

وكم هنالك ياسورية من مناسبات كريمة تجدد ذكرك وتلفت الناس إليك، فكم في مقابرك من عظماء الإسلام والأئمة الأعلام كم فيها من المحدثين وعلماء الرجال كابن الصلاح والذهبي والمزي، ومؤرخين كابن خلكان وابن عساكر، وابن كثير، وأبي الفداء، وأئمة كالنووي وابن تيمية وابن القيم، وصوفية كابراهيم ابن أدهم وأبي يزيد البسطامي ومحي الدين بن عربي.

وفي حجرك يادمشق يرقد ذلك الأسد الذي ملأ الفضاء بزئيره، وخلع قلب الغرب بشجاعته، كما ملكه برحمته وإنسانيته الرفيعة، ذلك الذي زحف إليه الغرب بأقياله وأبطاله، وأسوده وأشباله، وأجلب عليه بخيله ورجله، فناهضه وحده، وكسره في «حطين» كسرة شنيعة لم يقم بعدها، وحفظ على الإسلام حرمه وحرمته، وعلى الشرق شرفه وكرامته، ذلك صلاح الدين – سلام الله على صلاح الدين – فلولا هو لانتهى العالم الإسلامي وتحطم الشرق، وعاث وحوش الغرب في ربوعه يستأثرون

بخيراته ويستبدون بحكمه ، ويتحكمون في أمواله وأعراضه، ويضطهدونه في دينه وعقيدته،ويرزأونه في أخلاقه وروحه ، وكان العالم الإسلامي كله مستعمرة غربية، وكان فيه عشرات «فلسطين» وعشرات «الجزائر» فلك ياسورية الكريمة منة على العالم الإسلامي وفضل على الشرق العربي في شخص صلاح الدين الأيوبي، الذي ترعرع على أرضك، وتنبل في تربية ملكك الصالح نورالدين، ومنه تولى قيادة الجيوش، وفي أرضك دفن .

لقد أتى عليك ياسورية - وكنت تسمين يومئذ الشام - حين من الدهر ، وأنت تحكمين أكبر قطعة من العالم المتمدن المعمور، وكانت مملكتك العظيمة لم تكن لتقطع مسافتها في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل، وكان الخراج يجبى إليك من الهند في الشرق، ومن الأندلس في الغرب، ولم يزل سلطانك يتقلص، ودائرة نفوذك تضيق ، وحدود مملكتك تقصر وتنزوي حتى انطويت على نفسك، واقتنعت بهذا القطر الذي يسمى «سورية» وتخليت عن القيادة العالمية، فما السر في ذلك ياسورية العزيزة،وما سبيل الرجوع إلى ذلك المركز العظيم ؟

ولعلك تقولين :إن العراق هو الذي انتزع مني هذه الزعامة في القرن الثاني الهجري، وحلت بغداد محل دمشق فكانت مركز الخلافة ؛ وكانت عاصمة الامبراطورية الإسلامية العظيمة !

ولكني أوجه نفس هذا السؤال إلى العراق، فقد كان مصيره في منتصف القرن السابع كمصيرك ياسورية في القرن الثاني، إن سبب هذه النكسة العظيمة التي واجهتها أنت وواجهها العراق بدوره أعمق مما ظننته .

واسمحي لي أن أشرحه ، إن سر عظمتك ياسورية وسيادتك على العالم كله ، سيادة دامت قرناً كاملاً ، هو أنك تزعمت هذه الأمة التي بعثت بعثاً جديداً وكلفت تبليغ رسالة إنسانية عالمية .

تقدمت أنت بشجاعتك وطموحك وهمة خلفائك الذين كانوا يحكمون في دمشق، وتكفلت قيادة هذه الأمة، فكان قادتك العظماء يفتحون البلاد ، وينشرون الإسلام ، وينشرون الدين والعلم ، ويعلمون الأخلاق والفضيلة ، والإنسانية والكرامة ، كذلك فعل محمد بن القاسم في الهند ، وطارق بن زياد في الأندلس ، وموسى ابن نصير في المغرب ، فكان الفتح والرسالة مترافقين وكان قادتك رسل الخير والفضيلة ، ومشاعل العلم والإصلاح ، وكانت جيوشك جيوش الإنقاذ ، وكان رجالك رجال الإسعاف ، تخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديـــان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وتضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ؛ وكان الناس في حاجة إلى هذه الرسالة حاجة الأرض الجدبة إلى الأمطار ، وكانوا في حاجة إلى الحكم العادل حاجة المسجون إلى الحرية فاستقبلوا رسله ورجاله وتفتحت لهم قلوبهم وبلادهم ، وارتمى العالم السليب الحزين في أحضانك كما يرتمي الطفل الصغير المذعور في أحضان أمه وأبيه ، وتكونت دولة من أعظم دول العالم ، وكانت لك وصاية على الشعوب والأمم .

ولكنك بدأت — ولا مؤاخذة يا سورية الحبيبة — تعتمدين على قوتك وفتوحك أكثر مما تعتمدين على قوة هذه الرسالة ،

وتعنين بجمع الأموال، أكثر مما تعنين بأخلاق الرجال، وصلاح الأحوال، وبدأ رجال الحكم، وعمال البلاد، وجباة الأموال يتخلفون في أخلاقهم وصفاتهم، وأصبحوا كسائر الحكام والعمال في سائر الدول والحكومات حتى لم يمض قرن على مملكتك العظيمة حتى صار الناس يشعرون بذلك في نواحي المملكة، فقد حدث التاريخ أن رسل يزيد بن عبد الملك ذهبوا إلى رُخّج وسجستان لتحصيل الخراج والأتاوة المفروضة عليها، فقال لهم ملك هذه البلاد واسمه رتبيل: « ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون سود الوجوه من الصلاة ؟ قالوا : انقرضوا : ! قال: أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ؛ وإن كنتم أحسن منهم وجوها » ثم لم يعط أحداً من عمال بني أمية ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الأتاوة شيئاً .

فقد خضع لك العالم ياسورية في القرن الأول، وقامت عليه وصايتك، لأنك كنت تمثلين ديناً جديداً قضى الله بظهوره وانتصاره، وتحملين الرسالة الكريمة التي تنقذ البشرية من الجهالة والظلم واستعباد الإنسان للإنسان، ولا تعيشين لنفسك ولمصالحك وشهواتك، بل تعيشين للعالم ولصالحه ولخير الإنسانية جمعاء ، فمشى العالم كله في ركابك وأحبتك الأمم المفتوحة ، ومتى أحبت الأمم المفتوحة فاتحها ؟ فاختارت لغتك وثقافتك ودينك وعقيدتك أما وقد اشتغلت بنفسك وتخليت عن رسالتك، فقد انقطعت صلة العالم بك، وأصبحت قطراً من الأقطار، ودولة من الدول .

ولكن شأنك غير هذا الشأن ياسورية العظيمة، إن موقعك الجغرافي، وأهميتك الحربية، وتاريخك الماضي، وشعبك السليم

المؤمن، كل يشير إلى أنك خلقت لغير هذا وأنك تسيئين إلى نفسك وتظلمينها لو اقتنعت بالدون، وزهدت في الزعامة العالمية !

ولكن كيف السبيل إلى ذلك، والزعامة ليست بالأمر الهين، وهنالك بلاد أوسع مساحة وأغنى في الوسائل والإمكـانيـات وأكثر عدداً وعدة ؟!

إن السبيل الوحيد إلى ذلك يا سورية أن تحملي الرسالة التي حملتها في عهدك الأول، عهدك الزاهر الذهبي، وأن تتبني تلك الدعوة التي تبنيتها في القرن الأول فتتملكك كما تملكتك في العهد الأول، وتخلصين لها اليوم كما أخلصت لها بالأمس، وأن تجعلي العالم يشعر بحاجته إليك، ويثق بإخلاصك ونفعك، واحملي إليه رسالة الدين السماوي الذي أكرمك الله به منذ ثلاثة عشر قرناً. يوم كنت تعانين من ظلم الرومان وحيفهم، مايعاني كثير من الشعوب اليوم من الظلم والاستبداد، وشرور الاستعمار .

إن الأمم ياسورية، لا تسود باللغات والثقافات، ولا تسود بالمدنيات والقوميات، إنما تسود بالرسالات والدعوات والأهداف والغايات، وكلما كانت هذه الرسالات أعم للشعوب والأمم وأعود على الإنسانية بالخير والسعادة، وكلما كانت هذه الأهداف والغايات أسمى وأعلى، وأبعد عن الأغراض الشخصية أو الحزبية أو الاقليمية، وأعرق في الإنسانية، كانت سيادة هذه الأمم التي تحتضن هـذه الرسالات، وتدين بهذه الغـايات أعمق وأرسخ وأوسع وأقوى، ولا تزالين تملكين هذه الرسالة، وهي الرسالة التي حملتها إليه غزاة العرب ودعاتهم في العقد الثاني من

القرن الأول، ولا تزالين تعرفين هذه الغاية السامية التي خرجوا لتحقيقها من جزيرة العرب .

دعي التردد ياسورية، فلا أضر على الأمم من التردد وخذي بالعزم، والأمر الجزم، واحملي راية الإيمان والـدعوة في الخارج، وراية الإصلاح والتربية في الداخل، وحـاربي فساد الأخـلاق والتحلل، والميـل الزائد إلى الملاهي، والرخـاوة والترف، فلا بقاء لأمة ولا قوة على عدو بانحلال الأخـلاق، ورخاوة الأجسام، والترف الفاحش، واذكري ان من أسباب انتصار العرب تقشفهم في الحياة واحتمالهم للمشاق، ومن أسباب انكسار الرومان تنعمهم في الحياة وغلوهم في المدنية، ولا تنسي أنك دائماً على الحدود فلا تضعي السلاح ولا تميلي إلى الدعـة والراحة، ولا تمكني الغواة والذين تجارتهم في الأخلاق والأعراض من إفساد شبابك وإضعاف العقيدة والقوة المعنوية .

لقد كانت لنا قومية نعتز بها يوم جاء رسلك ودعاتك إلى بلادنا، وكانت لنا لغة لا نعدل بها لغة، كانت لنا عصبية نقاتل في سبيلها، فتخلينا عن كل ذلك واندمجنا في القومية الإسلامية العظيمة، وعكفنا على دراسة اللغة العربية الكريمة، وتركنا العصبية القومية والحمية الجاهلية، فالله الله يا سورية الإسلامية ، لاتتمسكي بما أبعدتنا منه من النزعات الجاهلية والقوميات الضيقة، ولا تقعي في الحمأة التي أخرجتنا منها .

لقد طار صقر قريش من أرضك، فأسس في الغرب دولة وحضارة بقيت مدرسة الغرب ثمانية قرون ، ولا يزال الغرب يدين

لها في معرفة مبادئ الحضارة ومبادئ العلم والحكمة، فأقبلي ياسورية مرة ثانية إلى الغرب برسالتك وأنت في مركز تستطيعين فيه أن توجهي الغرب في حضارته وحياته وتكملي بإيمانك وروحكماينقصه من إيمان وروح ، لقد كان اللائق أن تكون الاستفادة بينك وبين الغرب متبادلة، وأن يكون التصدير بقدر التوريد، فإذا أخذت منه مما يفوقك فيه وسبقك إليه من مصنوعات وآلات ، فكان اللازم أن تصدري إليه وتهبينه مما تفوقينه فيه من مبادئ وغايات ومما تفردت به من وحي ورسالات، وان الحضارة المثلى التي فيها سعادة الإنسانية هي التي تجمع بين الغايات الفاضلة والدوافع الحسنة، وبين فرص العمل وقواه التي يتمكن بها الإنسان من تحقيق هذه الغايات والوصول إلى هذه الأهداف، ولا شك أن هذه الحضارة لا تظهر إلى الوجود في هذا العصر مالم يتعاون الشرق والغرب بعضهما مع بعض ولم يسهما في تكوينها وإبرازها، ذلك بإيمانه وهذا بتنظيمه وعلومه، فاعرفي يا سورية ضخامة مسؤوليتك وعظم الدور الذي تستطيعين أن تمثليه .

أما بعد، فقد كان لك على بلادنا فضل، ولا يزال، وذلك عن طريق محمد بن القاسم الثقفي، الذي سار إلى الهند بجيوش المجاهدين ودعاة الإسلام المؤمنين، في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، فأحبته الهند وخلدت ذكراه، وذاق كثير من أهلها طعم الإيمان، وكان دخوله فيها فاتحة عهد جديد .

وما دفعني إلى هذا الحديث إلا تقدير هذه اليد البيضاء والحق القديم ، ولعلي قمت بذلك ببعض الواجب و وفيت شكر النعمة والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

ابسمي يا زهرة الصحراء[1]

لم يكن يصدق في الزمن القديم أن في الصحارى القاحلة أزهاراً ورياحين ولكن من رأى هذه المدينة الزهراء الوليدة، التي قفزت من وسط الصحراء ، ومن بين الرمال الوعساء في عقد من السنين وعلى غفلة من الناس ، تبدو كزهرة جميلة في صحراء وتزهو بأنوارها المتنوعة في الليل، وبمبانيها الأنيقة من أحدث طراز في النهار ، صدق أن الصناعة والعلم يحولان الصحراء حديقة ، والقفر الخالي مدينة، وأن في بطن الصحراء كنوزاً وطاقات إذا أثيرت واستثمرت في صالح الإنسانية وتقدم المدنية صنعت العجائب وحيرت الألباب وعادت بالخير الكثير .

إنك يازهرة الصحراء ، يامدينة الكويت من أحدث مدن العالم وأحدث العواصم العربية سناً، ولكنك تمثلين من النبوغ والجد ما لايثبت حداثة السن وإنك تتقدمين إلى الشباب والاكتمال بخطى سريعة جريئة، فلا يمضي عليك كثير إلا وأنت من مدن الشرق العربي الكبيرة وتحتلين من بين شقيقاتك المتقدمة في السن المكانة الرفيعة .

إن كثيراً من الناس يردون الفضل في ازدهار الصناعة

---

(١) أذيع هذا الحديث من الإذاعة العربية بالكويت سنة ١٩٦٢ م .

والتجارة وتقدم المدنية والحضارة إلى هذا النفط الذي انطويت عليه قروناً، وقد خرج حين أراد الله فعاد عليك باليمن والبركة، وعلى البلد بالرخاء والثراء، ولكنه ليس مرد الفضل وحده وليس السر في تقدمك وازدهارك، فلو فقد النشاط والذكاء وفقد العمل والإرادة لما نفع هذا الذهب الأسود وضاع في أمور تافهة لاقيمة لها .

إنك يازهرة الصحراء قد قطعت شوطاً واسعاً في المدنية العصرية وبرزت كلؤلؤة جميلة في العمارة والحضارة، ولكني أرى مع كل إعجاب لهذا التخطيط البديع ، أن مهمتك أعظم وأوسع من أن تكوني مدينة من أجمل مدن الشرق ، فليس ذلك بميزة كبرى تعتزين بها ، وليس ذلك مايطلبه منك العالم اليوم ويحتاج إليه أشد الاحتياج ، إنك مدينة ذات تاريخ وتراث وقطعة من صميم تلك الجزيرة العربية ، التي لم ترأن تضيف يوم نهضتها إلى مدن العالم الكثيرة الجميلة في القرن السادس المسيحي مدينة جديدة ، فلم يكن ذلك زيادة تشكر عليها وتذكر في التاريخ ، إنما جاءت على الإنسانية المعذبة الشقية بمدنية جديدة ، مدنية تقوم على العقيدة والروح والأخلاق إنها أعادت إلى الإنسانية مافقدته من قرون من العلم الصحيح والإيمان القوي والدافع الخير، ذلك ماأصبحت بفقده الأمم قطعاناً من الغنم وعصابات من اللصوص ، إنها منحت الإنسانية رسالة سماوية جديدة ، وقوة مقاومة للشر والرذيلة ، كانت قد فقدت من زمن بعيد ، ومنحتها الفرد الصالح القوي الأمين الذي يوجه المدنية توجيهاً صحيحاً ويملأ كل فراغ في الحياة والمجتمع ، فكان فيما

أتحفته إغاثة للإنسانية الملهوفة وإسعاف للمجتمع العليل، وفتح جديد في التاريخ الإنساني، وكان أفضل هدية تقدمت بها أمة أو بلاد إلى العالم في زمن من الأزمان.

إن هذه الجزيرة قد أنجدت الإنسانية ومدت إليها يد المعونة والإحسان ساعة احتضارها وانهيارها، يوم أشرفت سفينة الحضارة - بما فيها من كنوز وعلوم وتحف وتراث ثمين - على الغرق وعتا الموج، ودجا الليل وهجم القرصان، وفقد الدليل وأظلمت الطرق وأسقط في يد الربان، واقرأ إن شئت:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) [آل عمران: ١٠٣]

إن هذه الجزيرة قد برزت إلى العالم بدين جديد متدفق بالحياة، وبجيل جديد متدفق بالحيوية والنشاط، ممتلىء بالحماسة وقوة العمل، غني القلب، كبير النفس، بعيد النظر، عالي الهمة (أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً) قوي الروح، قوي الإيمان، قوي الجسم، متقشف في الحياة، زاهد في المظاهر، مستخف بالزخارف، متمسك باللباب، مستهين بالقشور، قد شغله الإشفاق على مصير الإنسانية والشفقة على خلق الله، والتألم لظهور الفساد وضياع الإنسانية عن حسد الأغنياء والملوك ومزاحمتهم في البذخ والنعيم، وشغله هم الآخرة عن التوسع الكثير في المطاعم والمشارب، والتأنق الكبير في الملابس والمساكن، جمع بين الحياة البسيطة القانعة الزاهدة وبين المغامرات العظيمة والدولة

الكبيرة والفتوح الواسعة، فكان جيلا فريداً في التاريخ في قوة إيمانه وقوة شخصيته وجمعه بين الأضداد .

لقد كان في عواصم العالم وفي مراكز الحضارة الرومية والفارسية من مظاهر الأبهة والترف مايطمع فيه العربي المنعزل في جزيرته، وما يتحلب عليه فمه ويحسد فيه الأمراء والأغنياء الذين احتكروه لأنفسهم، وقد كان هذا ظن الروم والفرس يوم خرج العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام ويفتحون العالم وينقذون الأمم، فاعتقدوا أن العرب إنما ضاقت عليهم الجزيرة الفقيرة وأجهدهم الجوع ، وجاء بهم الطمع ، ولكن العرب أعلنوا أنهم يعيشون في سعة من نفوسهم المؤمنة المطمئنة، وفي سعة من صحرائهم الفسيحة المترامية الأطراف ، وفي سعة من حياتهم الطبيعية الراضية، وأن الضيق هو مافيه الروم والفرس من حياة مصطنعة، وحضارة متكلفة، ومدنية عجمية، وعادات قاهرة، طاغية، وأعراف ظالمة، وأساليب مفروضة، وآداب مخترعة، فهم في قفص من ذهب مؤصد الأبواب، مؤصد المنافذ، لا يدخل فيه من النور والهواء إلا مايعيش به الطائر المدلل، وإنما أخرجتهم الرحمة والرثاء للبؤس الذي تعيش فيه الأمم ويعيش فيه الملوك ،والرثاء للجاهلية التي خرجوا منها ولا تزال تتورط فيها الأمم ،فقالوا في ثقة واعتداد وفي عزة نفس وايمان : « الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، وضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام » .

لقد كانت الحضارة الرومية والفارسية التي بلغت أوجها

وزهوها في القرن السادس المسيحي ومن أساليب عيشهم كثير مما تحرص على تقليده الأمم المتخلفة في المدنية ، وكان للعرب – وهم من أقدر الناس على الاقتباس – أن يستوردوا هذه المدنية برمتها ، وينقلوها إلى صحرائهم وحواضرهم ، وقد تغلبوا على الدولتين وامتلكوا مواردهما ووسائلهما ، ولكن منعهم من ذلك اعتقادهم أن مركزهم مركز الإمامة والسيادة ، ومركز التوجيه والإرشاد وأن الروم والفرس أمم مريضة مسلولة ، وسقامها هذه المدنية المترفة والحياة المزورة ، وقد كانت من أقوى أسباب هزيمتها وانكسارها ، وانهيار هاتين الامبراطوريتين اللتين اقتسمتا العالم المتمدن المعمور ، فتجنبوا تقليدها في عاداتها وكمالياتها وتمسكوا بفروسيتهم العربية والحياة المتقشفة الجليدة ، ولم يقتبسوا من الروم والفرس وأهل الهند إلا المفيد الصالح ، كالصناعات والتجارات وعلوم الحكمة والطب ، وأساليب الحرب ، وبعض مرافق المدنية ، فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها وتجنبوا القشور مهما أمكن – مما هو مماثل في المدنية العجمية – مما يحذر منه قادتهم وعلماؤهم .

لقد اعتقد العرب أن دورهم في بناء المدنية وتكوينها دور الإعطاء والإفاضة ، ودور التخطيط والتصميم ، ودور الابتكار والأصالة ، ودور الأستاذية والإشراف ، وقد ظلوا يمثلون هذا الدور إلى مدة طويلة حتى فقدوا مركزهم أخيراً في قيادة الركب الإنساني ، فكان من ذلك شقاء لهم وشقاء للإنسانية أعظم ، وتنزلوا إلى التقليد والاعتماد على الغير والاستيراد من الخارج ، وصاروا

يعيشون في دائرة ضيقة من التفكير ومن الواقع ، وصاروا يفكرون لأنفسهم بعدما كانوا يفكرون للعالم كله ، وأقاموا حولهم سوراً من الدم واللغة والثقافة بعد ما هدموا الأسوار القديمة ، وأخرجوا الأمم منها، تحلق في الفضاء الواسع وتجري في أرض الله الواسعة وأصبحوا يسبحون في برك وأنهار بعدما كانوا يسبحون في بحر لا ساحل لــه. فهلمي أيتها الجــزيرة إلى مكانــك الأول من القيــادة والتوجيه والتفكير في الإنسانية والاهتمام بشؤونها والجمع بين أسرها ، ورعاية قطعانها الضالة ، وهداية البشرية بالرسالة الإسلامية العالمية التي نبعت منك وإليك تعود .

لقد شاءت سماحتك العربية وأريحيتك المعروفة في التاريخ أن تجودي بالنفط على العالم ، فكنت في ذلك السخية المحسنة المشكورة ولا شك أنها مساهمة غالية منك في بناء هذا الصرح الصناعــي الكبير ، الذي يفتخر به العالم المعاصر ، وقد شهد الجو والبر بقيمة هذا النفط الذي يستخرج من أرضك ، ودانت له الطــائرات والسيارات بالفضل والشكر ، فشكراً لك أيتها الجزيرة الكريمة العريقة في السماحة والسخاء من كل من ينتفع بهذه الوسائل وما أكثرهم في العالم .

ولكن فيك ما هو أغلى من هذا الذهب الأسود وأنفع للمدنية وأعود على الإنسانية بالخير والنفع العام ، هو الإيمان الذي نبع عينه من أرضك لأول مرة بعد قرون متطاولة ، فإذا كان هذا النفط تحفة الأرض إلى الأرض كان الايمان الذي جاء به محمد ﷺ تحفة السماء إلى الأرض ، وفيك اتصلت السماء بالأرض لآخر مرة

وقد انقطعت صلة الأرض بالسماء ، والأجسام بالروح والقلب ، والصناعة والحضارة بالإيمان والأخلاق ، فلتتصل الأرض بالسماء والأجسام بالأرواح ، والقلوب والصناعة والحضارة بالايمان والأخلاق مرة ثانية عن طريق الجزيرة العربية وعن طريق الوحي المحمدي ، وقد اشتدت حاجة الإنسانية إلى هذا الاتصال حتى أصبح العالم لهذا الانفصال المشؤوم ـ بين الأجسام والروح والقلب والصناعة والحضارة والايمان والأخلاق ـ على شفا حفرة من النار وعلى وشك الإنهيار .

إن كثيراً من محبيك يتمنون لك شخصية قوية مستقلة في كل ما تقتبسينه من علوم ومدنية ، وفي كل ما تتبنين من حضارة وصناعة وفي كل ما تقومين به من تعليم وتوجيه لجيلك الجديد ، وأن تفرغي ذلك كله في قالبك العربي الإسلامي الجميل ، فتخرجي بطراز جديد تتجلى فيه شخصيتك العبقرية ، وعقيدتك الإسلامية ، ونظرتك الخاصة إلى الحياة ، وفهمك الممتاز للمدنية ، ومهمتك المخلصة في العالم ، فذلك الطراز هو الذي سيقلده الشرق ، ويمجده الغرب ، والعالم لم يزل ـ ولا يزال ـ خاضعاً للاستقلال في الفكر والابتكار في البناء ، والاعتماد على الشخصية ، وإن قلت الوسائل وضاقت الموارد ، فكيف إذا كثرت الوسائل ووسعت الموارد ؟ وليكن كل قسم من أقسام مدنيتك وتنظيماء متميزاً عن مثله في بلاد لا دين لها ولا رسالة ، فأنت بلاد ـ والحمد لله ـ لها رسالة وليجر دمك في عروقك ولا يتجاوزها إلا بتناسب بين الاستيراد والتصدير ، فالمدنية والحكومات إنما تقوم على هذا التناسب .

وبعد فإني أعتقد أن الجزيرة العربية كلها ، في حساب الانتفاضة

الإيمانية التي وجدت على بعثة الرسول الأعظم ﷺ ودعوته وجهاد أصحابه ، وقد أخرجتها هذه البعثة من الجمود والخمول إلى النشاط العالمي ، والعظمة الخالدة والسيادة الروحية ، وهي التي غرست حبها في القلوب والنفوس ، يسعون إليها على العيون والرؤوس ويأتون من كل فج عميق ، وهي التي منحتها الكتاب العزيز ، الذي حفظ لغتها من الضياع والدثور كما ضاعت لغات كثيرة، وكان سبباً مباشراً في تولد هذه العلوم الكثيرة ، وتكون هذه المكتبة الواسعة التي تعتز بها الثقافة الإسلامية العربية ، وهي التي نشرت لغتها ، في مشارق الأرض ومغاربها ،وفرضت دراستها والتضلع منها على كل من يحب أن يفقه القرآن ويتفقه في الدين ، ولا تزال الثقافة العربية الإسلامية ، هي الثقافة العالمية التي تتمتع بالتقديس والاحترام الديني والعاطفة القوية في رقعة واسعة في العالم ، ولا تزال هذه الهداية مصدر انتفاضة جديدة لمن أرادها وسعى لها سعيها وأنت من أسرع الناس إلى معرفة الفضل وأبعدهم عن نكران الجميل وجحود الحقائق .

لقد تحدثت يازهرة الصحراء على لسان العالم أخاطب الجزيرة العربية وأعاتبها ، وأشكو إليها بث الإنسانية وحزنها وآلامها ، ثم نقلت حديث الجزيرة إلى العالم معتذرة مجيبة مفصحة بليغة ، فكان حواراً (بين العالم وجزيرة العرب) أصغت إليه الآذان ، وأقبلت عليه القلوب ، وتحدثت إلى مصر فقلت : « اسمعي يامصر » فلم تكن صيحة في واد ونفخة في رماد ، وتحدثت إلى سورية فقلت : « اسمعي ياسورية » فوجدت آذاناً صاغية وعقولا واعية ، وهأنذا أتحدث إليك فأقول : « اسمعي يازهرة الصحراء » وأرجوأن أحظى منك بكل تشجيع وتقدير ، وبكل اهتمام وتفكير .

اسمعوها مني صريحة أيها العرب

لو كانت أمة على وجه الأرض تستحق مني أكبر تقدير وأعظم إعجاب وإكبار ، لكان العرب من غير نزاع .

ولو كانت نفسي تدفعني إلى المجاملة مع أمة من الأمم وتزينها لي لكانت أمتي العربية العظيمة .

وعندي مما أمدح به هذه الأمة العربية العظيمة بحق لكثير وواسع ، وعندي مما أرضي به نفوس هذه الأمة وأسماعها ، وأرضي به عاطفتي كعضو من أعضاء هذه الأسرة العظيمة الكريمة لكثير وكثير ، وكل ذلك مما يصدقه العلم والواقع ،ويقول العالم: صدقت ، ويقول التاريخ : عدلت وبررت .

ولكني أعتبر هذه المجاملة في هذه المناسبة جريمة خلقية ، واعتبرها خيانة عظيمة في حق هذه الأمة التي أدين لها في الدين والأخلاق والإنسانية والشرف ، ويدين لها العالم والإنسانية في حياتها الجديدة وفي عقيدتها وخلقها ، وليست أمة أحق بالأمانة وأحق بالصراحة وأحق بالنصح من هذه الأمة التي مثلت الأمانة في عهد سادت فيه الخيانة ، وصارحت في فترة طغت فيها المجاملات وصدقت في دور فشا فيه الكذب ، ونصحت في ساعة انتشر فيها

الغش والخديعة ، فمن أحق بهذه الأخلاق العالية ، والمعاني السامية من هذه الأمة ؟ .

ولكن من ينصح هذه الأمة ومن يصارحها ومن يصدقها ؟ والزمن زمن السياسة وزمن تبادل المنافع والمصالح ،وزمن الاستغلال وكل ذلك يقوم – أو يعتقد أنه يقوم – على المجاملات وإرضاء العواطف ، وإطراء الحليف والزميل ، وتخدير الأعصاب وعلى الغش والخديعة ، ويقوم على مدح القوميات وعلى مدح الحضارات القديمة التي تنتسب إليها الشعوب اليوم ، وعلى الموافقة في خير وشر ورشد وغي ما لم تمس مصالح الأمة الأخرى السياسية ومنافعها الاقتصادية .

ولكن عقيدتي وديني الذي أؤمن به وأدين ، يفرض علي أن أكون صادقاً صريحاً ، وصلتي بهذه الأمة – الدينية والنسبية والثقافية – تلزمني بالصدق والصراحة والوفاء والأمانة ، ثم اقتناعي بأن العرب الأمة المختارة لحمل رسالة الإسلام قد كتبت لهم الوصاية على العالم ما داموا يدينون بهذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، وعلمي بأن هذه الوصاية لم تحول عنهم بعد ، ولم تبرز أمة على منصة العالم تخلف هذه الأمة وتضطلع بالإمامة ، ولكني أعرف أن الزمان زمان تحول والساعة ساعة الانتقال ، كالساعة التي شهد فيها العالم أكبر تحول في التاريخ وفي جدود الأمم ، ساعة مرت في منتصف القرن السادس المسيحي تحولت فيها الإمامة وتحول فيها منصب الهداية من بني اسرائيل – الأذكياء المثقفين أصحاب الحضارة والعلوم والقرائح والمواهب – إلى بني اسماعيل

أو العرب – الأمة التي تغلب عليها الأمية والبساطة والفقر والاعتزال عن العالم – والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان أكبر تحول شهده التاريخ الجديد ، وكان لهذا الحادث تأثير في مصير الأمم وأوضاع العالم واتجاه الإنسانية ، لم يكن لحادث سياسي أو تحول اجتماعي أو ثورة أخرى .

إنني لا أخاف أن يعود هذا المنصب إلى بني اسرائيل مرة أخرى ، فليس هنالك ما يدل على ذلك ، وبنو اسرائيل في شغل عنه لا شأن لهم بالعالم وما يعانيه من أزمة روحية ودينية وخلقية ، أسسوا حياتهم الجديدة ودولتهم الوليدة على المادة والمعدة والتنظيم الصناعي والاقتصادي ، وجمعوا بين مبادئ كارل ماركس – الذي نبغ فيهم ونهض منهم – ووصايا ميكافيلي ، وحملوا معهم من اوروبا إلى وطن اليهود ثمرات الحضارة الجديدة المادية اليانعة ، وحملوا معهم عصارتها وخلاصتها وشرورها وخبائثها ، فهم من أبعد الشعوب من أن تسند إليهم هداية الأمم والوصاية على العالم ، ومن أن يؤمل فيهم النهوض برسالة الأنبياء الذين ينتسبون إليهم كثيراً ، ويتبجحون بهم كثيراً ، ومن أبعد الناس أن ننتظر منهم الثورة على الفساد الذي ظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ومن أن يحملوا إلى الغرب رسالة الأنبياء والحياة الروحية والدعوة إلى الوحدة الإنسانية والفكرة الآفاقية والعالمية ، وأن يجاهدوا في سبيلهما ويتفانوا لأجلهما .

ولكن ليس العالم كله بني اسرائيل ، وهم حفنة من البشر وقطعة صغيرة من الأرض ، قد يفاجئ العالم شعب آخر أو بلد آخر لم يكن في الحساب كما فاجأ العرب العالم القديم .

وإن هذا التحول يكون من غير نبوة جديدة ، فليس في النبوة المحمدية وفي تعاليمها وفي شرائعها ما يوجب التحول ، إنها دائمة خالدة ، إنها حية باقية ، إنها سائرة مع الزمن بل سابقة للزمن ، إنه سيكون تحولاً في حملة هذه الرسالة وفي حماة هذه الرسالة ، وهي حاجة الإنسانية ونداء الوقت .

والذي يطمعني في هذه الكلمة،ويغريني بها هو حبي وحرصي على أن يستعيدالعرب مكانتهم العالمية ، ويتسلموا هذه القيادة المباركة التي يقول الله عن حملتها :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) [السجدة : ٢٤] .

وأن يتحولوا عن المعسكر الذي يقول الله عن قادته وزعمائه :

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ . وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِنَ المَقْبُوحِينَ) [القصص : ٤١ — ٤٢]

بل يثوروا عليه ويعارضوه ويحاربوه وينادوا بأعلى صوتهم .

(كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ) [الممتحنة : ٤]

نادى بها جدهم ابراهيم في عصره :

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
[الزخرف : ٢٨]

إن لي كلمة اليوم مع إخواني العرب الذين يؤمنون بالله ورسوله ويؤمنون بهذا الدين ، ولي كلمة أخرى مع الذين يؤمنون بالعروبة وبالأمة العربية وحدها ، وكلتا الكلمتين صريحة و صادقة صدرت عن إخلاص وحب ونصح .

إن كلمتي مع إخواني المؤمنين بالإسلام واضحة جداً ، وإن خطبي معهم يسير جداً . اسمحوا لي أيها الإخوان أن أردد لكم الكلمة النبوية المدوية التي خاطب بها رسول الله الأنصار يوم حنين وسجلها التاريخ بنصها وفصها : « ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي ، وأعداء فألف بين قلوبكم » أيستطيع التاريخ العربي — وهو الصادق الأمين — أن يشك في صدق هذه الكلمة أو أن يشك في حرف من حروفها أو نقطة من نقطها ، لو كان هنالك مساغ للشك أو مجال للجدال لسارع إليه رجال عرفوا بالشجاعة والصدق ، ولكنهم قالوا : صدقت ، لله ورسوله المن والفضل ، وقال التاريخ : صدقت لله ورسوله المن والفضل .

ألم تكونوا ضلالا باتفاق العقلاء والمنصفين منكم ، ألم تشهدوا على نفوسكم بالضلال مراراً وفي مناسبات كانت أحق بالفخر والمباهاة ، ونفي الاتهامات والشائعات ، إن كانت مجرد اتهامات وشائعات ، أما شهد به جعفر في مجلس النجاشي ، وشهد به خالد أمام قادة الروم ، وشهد به المغيرة بن شعبة، وربعي بن عامر في مجلس رستم ويزدجرد .

وأي ضلال بالله أعظم من عبادة الأوثان في العقيدة والدين وعبادة الشهوات في الأخلاق ، ووأد البنات في الاجتماع ؟

ألم تكونوا عالة تجدون من الأقوات والأكسية النزر اليسير ، قد استبد بأفضلها و أكثرها وألينها الروم والفرس ، ألم يقل لكم يزدجرد يوم تقدمتم إلى عاصمته تتحدونها وتتهددونها بقوة إيمانكم ودينكم الجديد : « وإن كان الجهد دهاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ،وأكرمنا وجوهكم ،وكسوناكم ،وملكناعليكم ملكاً يرفق بكم » فلم يكذبه أحد من رسلكم ، والعرب أسرع الناس إلى تصديق الواقع والاعتراف بالحق ، وتكذيب الباطل ونفي الافتراء وأجرؤهم على الملوك والأمراء .

ألم تكونوا أعداء بأسكم بينكم شديد وقلوبكم شتى ، والقبائل دائماً في حرب دائمة أو هدنة عارضة ، وقد شهد التاريخ على أرضكم أطول حروب وأشأمها لأهلها في تلك البيئة المحدودة ومن يستطيع أن ينسى حرب البسوس وداحس والغبراء وما يوم حليمة بسر !

ألا لا يشكن أحد في نزعتي ولا يرميني أحد بالشعوبية وحمية الجاهلية ، فإني لاأقل عن أكبر عربي يعيش في العواصم العربية في عربيتي ونسبي الصريح المتصل ، وحبي للعرب وتضلعي من ثقافتهم وعلومهم وآدابهم ولغتهم ، وليس أحد من إخواني العرب الأقحاح أولى بالاعتزاز بالعربية مني ،وأوفر نصيباً فيها مني ، ولكن الإسلام أفضل من كل نسب وأقوى من كل عصبية .

ثم ماذا كان ؟ إسألوا التاريخ واسألوا ضمائركم وقلوبكم هبت عليكم نفحة من نفحات الإسلام وقام فيكم محمد بن عبد الله ﷺ ، وكان آخر الأمر منكم جميعاً إجابته إلى ما دعا وتأييده

في ما جاء به ، فأصبح الذين كانوا بالأمس ضلالاً لا يعرفون ديناً ولا يحملون علماً هداة معلمين وأئمة مرشدين ، حملوا النور والهدى والحياة إلى أقصى العالم « يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من تائه ضال قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس »[1]

وكيف كان أثرهم على الناس ؟ اسألوا في ذلك تاريخ العالم بعد القرن السادس المسيحي ، ما أعظم اختلافه عن القرن السابق ؟ وما أعمق أثره في العقائد والأخلاق والاجتماع ، وكيف قامت دولة التوحيد والايمان ، وكيف قامت سوق الجنة ، هل قامت دولة التوحيد والايمان هذا القيام في عصر من العصور ؟ وهل نفقت سوق الجنة هذا النفاق قبل محمد ﷺ ، وقبل أن يقوم العرب لنشر رسالته ؟ وهل انتشرت الهداية هذا الانتشار العظيم قبل مبعث الرسول ونهضة العرب ؟

وكيف كان غناكم أيها العرب بعد البعثة العربية والفتح الإسلامي العربي ، ألم يكن غنى تخطى القياس وتجاوز حدود الشرع والأخلاق ، وكان موضع نقد شديد من العلماء ، وإن كنتم في شك من ذلك — ولا أخالكم — فاقرأوا قصة الترف الأموي ، واقرأوا قصة عرس المأمون ودعوة ابراهيم بن المهدي للرشيد ، وتأملوا في انقلاب الأوضاع الاقتصادية في جزيرة العرب، وفي مدينة الرسول ﷺ ، وعموم الغنى في العصر الأموي حتى كان الوالي

(١) من كلام الامام أحمد .

يبحث عن فقير يقبل الزكاة فلا يجده ، وكيف امتدت دولة الإسلام حتى استطاع الرشيد أحد ملوكه أن يقول لسحابة وقدمرت به: « أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » وفي ذلك بلاغ ومقنع .

وكيف كان اتحادكم بعد الافتراق، وحبكم بعد التباغض وايثاركم بعد الأثرة ! اسألوا عن ذلك الأوس والخزرج، واسألوا عن ذلك الأنصار والمهاجرين ، واقرأوا قوله تعالى :

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم إذْ كُنْتُم أَعداءً فَأَلفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخوانًا) [آل عمران: ١٠٣] .

ولم يشهد التاريخ الإنساني أخوة أمتن ولا أطهر ولا أبعد عن الأغراض ، ولا أعمق من هذه الأخوة ، وانظروا كيف حاربت القبائل – المتناحرة بالأمس – تحت راية المثنى بن حارثة، وسعد ابن أبي وقاص ، وخالد بن الوليد وعقبة بن نافع ، وقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد، ومحمد بن القاسم ، وكيف حاربت الأمم والشعوب – المعادية المتباعدة بالأمس – تحت راية صلاح الدين الأيوبي . ألم يكن ذلك كله معجزة الإسلام وتصديق قول الرسول : « ألم آتكم أعداءً فألف الله بين قلوبكم » ألا تزال العقيدة الإسلامية والرسالة المحمدية تجمعان أمماً وشعوباً من أعظم الأمم والشعوب تباعداً في الأوطان ، واختلافاً في الحضارات ، والثقافات ، وتنوعاً في الألسنة واللغات ، هل توجد مجموعة بشرية تختلف في الألوان هذا الاختلاف ، وتتحد في العقيدة والغاية والنفسية هذا الاتحاد ؟

ألم يكن كل ذلك عن طريق محمد ﷺ وحده ، وعن طريق دينه الذي جاء به وحده ، لا يشك في ذلك مؤرخ ولا يشك في ذلك منصف ، ولا يشك في ذلك قومي ، فحقائق التاريخ أجل من أن يتناولها الشك ، أويسوغ فيها الجدال .

ثم ماذا كان ؟ ـ اسمحوا لي ولا تؤاخذوني ـ في عصر القوميات وفي العصر الذي أصبح العرب ـ حاشا المؤمنين منهم ـ فيه يتناسون محمداً ﷺ وما جاء به من النعمة ، وأصبحوا يؤسسون حياتهم وسياستهم على الوحدة العربية ، والقومية ، والوطن العربي ألم يكن ضلال بعد هدى ، ضلال في العقيدة والعمل والأخلاق والاجتماع ، وفوضى فكرية هائلة ، وتفسخ خلقي واجتماعي لا يقل ـ في العواصم العربية الكبرى ـ عن التفسخ الخلقي والاجتماعي في الجاهلية الأولى ، وقد يفوقه بالتنظيم والانتشار ، وبأنه قد صار فناً وصناعة وتجارة .

ألم تكن أزمات ومشكلات لا تنتهي ، وفقر مدقع في بعض الطبقات وسوء توزيع ، أما أصبحت الشعوب العربية كلها أو جلها عيالاً على الغرب ، أما أصبحت مسألة اللاجئين عقدة لا تحل ، أما أصبحت البلاد العربية مهددة بالشيوعية ؟

ثم ألم تكن فرقة بعد وحدة ، وانقسام بعد اجتماع شمل واتحاد كلمة ، وليس هنالك ما تخلف الرابطة الإسلامية وتقهر الشهوات ـ شهوة الحكم والزعامة والاستقلال بالمجد ، والأنانيات والأغراض الجنسية ـ وقد ظهر ضعف الرابطة العربية عن قهر هذه الشهوات والنزوات ، لتجردها عن عقيدة قوية ، وإيمان عميق ، وتربية

صالحة ولم تستطع أن تكون من هذه الدول والشعوب العربية التي لا يكثر عددها جبهة موحدة قوية ، وأن تمنع الجمهورية الجزائرية الديمقراطية ، والمملكة المغربية — وكلتاهما عربيتان — أن تتحاربا ولم تستطع أن توفق بين سورية والعراق — وكلاهما بلدان عربيان — ولم تستطع أن تجمع بين سورية ومصر زمناً طويلاً ، وتحافظ على واقع « الجمهورية العربية المتحدة » .

إن الفرد العاقل يوازن بين ربحه وخسارته ودخله وخرجه أليست لأمة — كالأمة العربية — العظيمة الحكيمة ، أن توازن بين ربحها ودخلها لما استمسكت بغرز محمد ﷺ واعتصمت بدينه وحملت رسالته وبين خسارتها وخروجها لما انفصلت عن ركبه وانطوت على نفسها ، وعاشت في عزلة عن العالم الإسلامي ، وأصبحت تنظر إلى القومية العربية كعوض عن القومية الإسلامية.

وكلمة أزفها إلى إخواننا العرب الذين يؤمنون بالعروبة كعقيدة ورسالة،وينظرون إلى الأمة العربية كأمة لا تعيش إلا على مواهبها الكامنة ، ولغتها العظيمة ، وصلاحيتها للبقاء ، وموقعها الجغرافي وأهميتها السياسية ، ويعتقدون أن شخصية الأمة العربية أقدم وأضخم من الرسالات السماوية ، والعقائد الدينية ، فقد كانت هذه الأمة قبل أن تكون هذه الرسالات ، وستظل بعد هذه الرسالات وتستطيع أن تعيش بغيرها .

إننا نلتقي بهؤلاء القوميين في تقدير الأمة العربية والإعجاب بشخصيتها القوية ، ومواهبها العظيمة وصلاحيتها للبقاء ، وإجلال لغتها العبقرية ، إنهم لا يسبقوننا في شيء من ذلك وليسوا أولى بهذه الأمة العظيمة وتقدير فضائلها — الصحيحة الثابتة — منا .

ولكننا نناشدهم بهذا الحب للعرب الذي يجمع بيننا وبينهم ونلتقي عليه ، وبالتاريخ الذي يثقون به ويحتجون ، هل كان للعرب أن يمثلوا هذا الدور العظيم الذي مثلوه في العالم ، وأن يشغلوا سمع الزمان وبصره ، وأن يغيروا مجرى التاريخ ، لولا هذه الرسالة السماوية التي تسمى الإسلام ، ولولا هذا الكتاب العظيم الذي يعرف بالقرآن ، لولا تبنيهم لهذه الدعوة الجديدة وجهادهم في سبيلها ، وهل كان لهم – إذا جرت الأمور مجراها الطبيعي – أن تفرض زعامتهم وسيادتهم على الشعوب والأمم ، ذات المدنيات الباهرة العتيقة ، والثقافات الواسعة العميقة ، وأن تنتشر لغتهم في مشارق الأرض ومغاربها فتندرس لغات كثيرة وتنسى ، وتصبح اللغة العربية من ضفاف دجلة في العراق إلى الوادي الكبير في الأندلس هي لغة العلم والدين والعبادة والسياسة ، وينبغ فيها أساتذة كبار وأئمة عظام كالجرجاني والزمخشري وأبي علي الفارسي والصغاني والزبيدي ؟ إلى أي مساحة زمنية أيها السادة وإلى أي أعداد ومقادير رياضية كان العرب يحتاجون في الوصول إلى هذه السيطرة السياسية والثقافية ، لو بقوا على وضعهم القديم ، هـــل كان يمكن ذلك في ألف سنة ؟ ! فقد مضى على الأمة العربية آلاف من السنين وهي تعيش على هامش الأمم وفي عزلة عن العالم ، أم كان لشعرها البليغ وأدبها الرفيع ، ولغتها العظيمة أن تشق طريقها إلى الأمام وتبلغ بهذه الأمة إلى ذروة المجد وأوج السيادة، كما وصل بها الإسلام فقد كانت المعلقات وكان شيء كثير مما يحتوي عليه ديوان الحماسة قبل أن يظهر الإسلام، ويبعث محمد عليه الصلاة والسلام ، فما أغنى عنها هذا الشعر البليغ وهذا الأدب الرفيع وهذه اللغة العظيمة

ولم تخضع للعرب واللغات والآدب، بل لم يسترع هذا الشعر والأدب واللغة انتباه العالم المتمدن ، ولم تتوفر الهمم والدواعي على جمعها وتدوينها ونشرها وشرحها إلا بعد ظهور الإسلام ، وبعد ما أصبح العرب – بفضل الإسلام – أساتذة العالم وأصبحت لغتهم وآدابهم ثروة إسلامية يجب على جميع من يدين بالإسلام دراستها والتوسع فيها وحفظها .

هذه كلها حقائق تاريخية بل هو التاريخ نفسه ولا أصدق أيها السادة الفضلاء انكم تجحدون التاريخ وتكابرون الواقع ، إلا أن لكم أن تقولوا إنما انتشرت اللغة العربية وآدابها بتأثير السيادة العربية العالمية ، وبفضل الحكومات العربية التي قامت في أنحاء العالم كما انتشرت اللغة الإنجليزية بتأثير الإمبراطورية البريطانية، واللغة الفرنسية بتأثير الإمبراطورية الفرنسية ، وستنتشر هذه اللغة الكريمة مرة ثانية إذا قامت الإمبراطورية العربية ، فليس الإسلام مرد هذا الفضل إنما هي القوة السياسية والسيطرة العالمية .

إنني لا أريد أن أطيل عليكم أيها السادة وأسائلكم كيف قامت الامبراطورية العربية وكيف انبثت سيطرة العرب ؟ ألم تقم بفضل الإسلام ، فكل ذلك معروف عندكم ، ولكني أقول لكم إن قضية اللغة العربية وانتشارها وتحكمها في العالم تختلف عن قضية اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية كل الاختلاف ، فاللغات الأوروبية إنما تبعت الحكومات الأوروبية ورافقتها في تقدمها ومغامراتها ، وعاشت عيالاً عليها . وكلما نالت أمة استقلالها وتحررت من نير الحكومة الأجنبية ثارت على هذه اللغة ، وحاولت أن تتخلص منها

في أقرب فرصة ، لأنها تعتبرها لغة أجنبية طارئة ، وتعتبرها رمز الاستعمار البغيض ، والاحتلال المقيت . وهذا شأن الهند التي أتقنت اللغة الإنجليزية كأهلها ، وكان فيها أدباء وكتاب وشعراء ودستوريون كبار ، صممت على التخلص منها في مدة قريبة ، وسيكون هذا شأن الجزائر بعد التحرر ، لأن هذه الأقطار لا تربطها بهذه اللغات الأوروبية عقيدة دينية أو عاطفة روحية ، إنما هي لغات فرضها عليها الاستعمار فرضاً ، فجدير بها أن تتبع الاستعمار في رحيله حتى يتم الجلاء ويتم استقلال البلاد سياسياً وثقافياً .

أما اللغة العربية فقد استمرت في الانتشار والازدهار بعد ضعف الحكومة العربية واضمحلالها ، وظلت تنتشر وتزدهر بعد انتقال القوة السياسية إلى الفرس والعجم ، وظلت تسيطر على أكبر رقعة من العالم الإسلامي وعلى أعظم مجموعة من العقول البشرية، رغم ضعف العرب ، فكانت لغة التأليف ، ولغة الحكمة والفلسفة ولغة البحث العلمي ، ولغة الفقه والكلام ، ولغة التاريخ والأدب ، ولغة التفسير والحديث في ايران وتركستان والهند ، ولا تزال لها مراكز ثقافية كبيرة في الهند وباكستان ، ويبلغ عدد من يحسنها قراءة وفهماً في هذه البلاد الأعجمية مئات الألوف ولايزال من يتعصب لها ،وإذا خير بين لغته الوطنية التي نشأ عليها وبين اللغة العربية التي نزل بها القرآن آثر اللغة العربية على لغة بلاده ، وحرص على تعليمها لأولاده ، ولا سبب لذلك إلا أنها لغة العقيدة والشريعة ولغة الإسلام « الرسمية » وقد كان الشيخ علي المتقي من رجال القرن العاشر يؤلف في هذه اللغة ، وليست على وجه الأرض حكومة عربية صميمة تكافئه على هذا البر باللغة العربية

وقد كان تلميذه محمد طاهر الفتني (م ٩٨٦ هـ) يؤلف كتابه البديع « مجمع بحار الأنوار » في شرح غريب الحديث في اللغة العربية – وهو في الهند – بعيداً عن مركز هذه اللغة ، وقد ألف الشيخ محمد أعلى التهانوي كتابه الفريد « كشاف اصطلاحات الفنون » في القرن الثاني عشر ، والشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي كتابه العظيم « حجة الله البالغة » في القرن الثاني عشر ، وكلاهما آثرا اللغة العربية لأثرهما العلمي الكبير ، لأنها في عقيدتهما لغة الإسلام ولغة العلوم الإسلامية ، ولغة المؤلفين الإسلاميين الحبيبة الأثيرة .

وقد أفاض الإسلام على اللغة العربية قدسية ليست لغيرها من اللغات وغرس حبها في نفوس المسلمين وفي سويداء قلوبهم ،حتى أصبحوا يؤثرونها على لغة آبائهم وبلادهم ،وأخفقت الحكومات الجبارة في اقتلاع هذا الحب من نفوس شعوبها المسلمة وقطع صلتها عنها وقد منعت الحكومة التركية الأذان باللغة العربية قانونياً وبقي الأتراك المسلمون يحنون إلى كلمات الأذان العربية أكثر من ربع قرن حتى إذا سمح لهم بذلك في العهد الأخير ،ودوى الأذان العربي أول مرة على منائر تركيا،سجد الأتراك على الشوارع شكراً وفرحاً ،وذبحت ألوف من النعاج والغنم .

فهل للغة من لغات العالم هذه المنزلة في النفوس وهذه المحبة في القلوب ؟ وهل كان للعرب هذا النفوذ العقلي والثقافي في العالم وهل كان لعلومهم وآدابهم هذا النفاق العجيب ،والرواج العظيم وهذه السيطرة على العقول والقرائح والأقلام لولا الإسلام ولولا البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام ؟ !

ونرجع إلى الحاضر أيها السادة ونقارن بين مستقبل الأمة العربية وقد احتضنت الرسالة المحمدية كما احتضنها في السابق وأدمجت شخصيتها فيها ، وقامت تدعو إليها وتكافح في سبيلها ، وبين مستقبل هذه الأمة وقد تجردت عن هذه الرسالة وتخلت عنها وانطوت على نفسها ،واقتصرت على القومية العربية ، ودعت إلى حضارتها الأولى وآدابها العربية التي سبقت الإسلام .

خذوا أيها السادة أكبر ورقة بيضاء تجدونها، وخذوا قلماً لا ينقطع مداده ، وارسموا قمة المجد التي تستطيع الأمة العربية : المتجردة عن الرسالة الإسلامية والزيادة المحمدية ، أن تصل إليها ، ارسموا هذه القمة بكل سخاء وشجاعة وارفعوها في إطار الواقع والإمكان العملي ما استطعتم ، هل تزيد هذه الأمة على أن تكون كالشعب الهندي أو الشعب الياباني في الشرق أو الشعب الفرنسي أو الشعب الإنجليزي في الغرب ، إنه أقصى ما يصل إليه شعب في حدود القومية ، ولا أريد أن أثير الآن مسألة العدل والظلم والحق والباطل ، وهل يجوز لشعب أن يستعبد شعباً آخر وأن يحتل بلاداً أخرى ، ولكن هذا مدى القومية وهذه آفاقها وهذه أقصى حدودها .

أين هذه القمة — مهما عظمت وتعالت — من منصب الثقة العالمية التي كانت تتمتع بها هذه الأمة ، وهي أمة الرسالة وهي أمة الإخلاص والتجرد ، وأين هي من منصب الهداية والأمانة الذي كانت تتمتع به وهي أمة العقيدة والايمان . إن نتيجة الوضع الأول — الوضع القومي — الأحقاد والضغائن والثورات والحروب

والصراع الذي لا يكاد ينتهي ، ونتيجة الوضع الآخر – الوضع الديني – الألفة والمحبة ، والتقدير والاعتراف ، والهدوء والسلام إن الرسالة المحمدية قد بلغت بالعرب إلى قمة المجد الحقيقي والسيادة الحقيقية ، حيث خضعت لهم القلوب والرقاب ، ودانت لهم العباد والبلاد ، وامتلأت لهم القلوب حباً وحناناً ، ونصيحة وإخلاصاً (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال : ٦٣]

ولم يعرف التاريخ فاتحاً أحبه المفتوحون غير العرب وقد اعتبروهم مرشدين ومنقذين ومحررين ، لأن الرسالة التي كانوا يحملونها هي رسالة فيها الإرشاد ، وفيها الإنقاذ ، وفيها التحرير وفيها الرحمة ، وفيها الحياة ، وفيها العمل ، وفيها الإنسانية ، وهذه الرسالة كفيلة بأن تبلغ بالعرب اليوم إلى هذه القمة ، وأن تبوئهم مبوأ صدق ، وأن تمكنهم في الأرض وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين.

إن الأمم أيها السادة القوميون لا تعيش بالحضارات ولا تعيش باللغات ، وإذا عاشت كانت حياتها قصيرة ، ومصطنعة وسطحية. إن الأمم تعيش بالرسالات ، وقد سمعتكم كثيراً تقولون : « إن العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة » فما هي هذه الرسالة ، إذا كانت الرسالة المحمدية – وهي أقرب الرسالات إلى الطبيعة العربية والأمة العربية – فلا مناقشة ، وإذا كانت غيرها فما هي أيها الأسياد ؟ وهل هناك رسالة خالدة غير الإسلام ؟ وهل هناك دعوة أو توجيه عالمي يغيث الإنسانية المحتضرة ، والمدنية الغربية

المنهارة ويمد الغرب بالايمان واليقين والثقة والقوة الروحية والإنسانية السامية ، غير الإسلام الذي لا سبب فيه إلا أنه أتاكم عفواً من غير تعب وتضحية ، وانتقل إليكم من آبائكم في التراث ، وعاش فيكم طويلاً من غير أن تدرسوه وتفقهوه .

لقد كان جديراً بكم أيها السادة القوميون أن تقتبسوا هذه الرسالة ولو كانت في أقصى العالم وعند أبعد الأمم ، وتتحفوا الأمة العربية بها لتعيش بها كريمة قوية ، وتتزعم بها العالم ، وبذلك تثبتون إخلاصكم وودكم ووفاءكم لهذه الأمة ، وتكونون قوميين صادقين ، فكيف وقد أشرقت هذه الرسالة من أفقكم وظهرت في لغتكم وتمثلت في أمتكم ووصلت إلى أقصى حدود العالم عن طريقكم.

إن أعظم مجرم قومي في حق العرب وأضر على هذه الأمة من هولاكو وجنكيزخان من يضعف صلتها بهذا الدين ومن ينضب في نفوسها معين الايمان واليقين ومن يحول بيننا وبين محمد ﷺ ، إن من يرتكب هذه الجريمة هو الذي يمهد الطريق لضياع هذه الأمة الكريمة وانهيارها وإفلاسها ، ويتآمر على وجودها وقوتها ويحولها من أمة مؤمنة منظمة قوية ذات عقيدة ، وهدف ، ورسالة وقائد عام محبب ، إلى أمة متشككة ضعيفة لا عقيدة لها ولا هدف ولا رسالة ولا قائد ، تجتمع القلوب على حبه وتجتمع الشعوب حول رايته ، إن هذا الخواء الذي تحدثه هذه الثورة المشؤومة لا يملؤه تنظيم قومي أو حلف عربي ، إن الايمان لا عوض له في حياة الأمم والأفراد ، وإن الأنبياء لا يخلفون بالزعماء السياسيين ، وإن الوعي القومي أو السياسي مهما تم وقوي لا يمنح الأمة العقيدة

الجازمة ، والدوافع النفسية العميقة إلى عمل الخير ، والأخلاق المستقيمة ، ولو أغنى هذا الوعي عن أمة لأغنى عن الشعوب الأوروبية ، وما كانت فريسة التفسخ الخلقي والفوضى العقلية ولما تعرضت للنهاية الأليمة القريبة .

إن لك أمماً هنا في الشرق بدأت تشعر بهذا الخواء الروحي ، والإفلاس في الايمان والعقيدة ، وفقدان قائد ديني روحي يجمع بين الشعوب والطبقات ، ويذيب اختلاف اللغات والثقافات ، ويغلب على العصبيات المحلية أو الحزبية ، والحزازات السياسية ، فقامت تبحث في تاريخها عن نبي أو قائد روحي تجعله إماماً وقائداً وتدعو باسمه ، وقد أحيت الأمة الهندية حديثاً ذكرى « بوذا » ذلك الذي اضطهدت ديانته ونفتها من الهند في العهد القديم ، واحتفلت به الهند حكومة وشعباً ، وقد نشط في ذلك كبار الملاحدة والزعماء السياسيين الذين لايدينون بدين ولا يؤمنون بعقيدة وذلك كله حرصاً على جمع شمل هذه الأمة العظيمة التي تتوزعها شعوب وطبقات وعصبيات ، وعلى إعادة الحياة والروح إليها .

فمن المؤسف المحزن المخجل أن يقوم في هذا الوقت في العالم العربي رجال يدعون إلى القومية العربية المجردة من العقيدة والرسالة ، وإلى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الأديان ، وعن أقوى شخصية ظهرت في العالم ، وعن أمتن رابطة روحية تجمع بين الأمم والأفراد ، والأشتات والأضداد ، إنها جريمة قومية تبذ جميع الجرائم القومية التي سجلها تاريخ هذه الأمة ، وإنها حركة هدم وتخريب تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ ، وإنها

خطوة حاسمة مشؤومة في سبيل الدمار القومي ، و« الانتحار » الاجتماعي .

إنني أعتقد أن في القوميين رجالاً مخلصين جادين ، لم يدفعهم إلى هذا التفكير الخاطىء إلا الحب الزائد للعرب ، والحرص على مجدهم وعزهم ، والنزعة القومية التي طغت بتأثير الغرب على جميع الشعوب ، وأنهم لم يتعمقوا في هذه المسألة تعمق الخبير المفكر ، ولم يختبروا نتائج الحركة القومية المجردة عن الإسلام الواسعة ، وما تجنيه على العرب أنفسهم من ويلات وخسارات وتحولات عظيمة ، وأنهم لا يزنون شيئاً إلا في ميزان النفع للعرب وأنهم إذا قيل لهم اتقوا الله في العرب لم تأخذهم العزة بالإثم .

إلى أولئك المجردين عن حمية الجاهلية الباحثين عن الحق التابعين للحقيقة أهدي هذه الكلمة المخلصة .

الى الراية المحمدية أيها العرب[1]

إنني أومن –أيها الإخوة الكرام – أن محمداً ﷺ منذ بعث هو نبي كل جيل وإمام كل عصر ، وأن دينه الذي جاء به سفينة نوح في كل طوفان ، وأن لا عاصم من أمر الله إلا من رحم والتجأ إلى هذه السفينة ، ولا أقول ذلك عن تقليد وعصبية ، إنما أقول ذلك – علم الله – بعد دراسة وبينة من الأمر واقتناع علمي ، وإنما تتشرف الأمم والجماعات والأفراد والأشخاص ويكتب لها البقاء والخلود ، والعزة والنصر باتباع هذا النبي الكريم والاعتزاز بدينه والتمسك بأهدابه وحمل رسالته وأمانته ، ومن استغنى عنه أو رأى الشرف في غير اتباعه ، أو ثار على إمامته العامة الخالدة التي فرضها الله على الأجيال الإنسانية كلها وعلى أدوار التاريخ كلها ، وقطع صلته عن دوحته العظيمة ، وشغل بنفسه وشهواته ومصالحه الشخصية عن حمل رسالته وأداء أمانته ، محي من الوجود وأخمل ذكره وأصبح مطموساً منكوساً ، وكان كورقة انفصلت عن شجرة خضراء فتذوي سريعاً وتصبح هشيماً تذروه الرياح عربياً كان أو تركياً ، هاشمياً كان أو تميمياً ، هذا قضاء الله وحكمه

---

(١) كلمة وجهها الكاتب الى الأعيان والسادة أعضاء الجالية العربية الذين اشتركوا في حفلة تكريمه التي أقامها له أحد أصدقائه العرب في بومباي الهند ، وهي الآن مهداة الى العرب جميعاً .

ولا راد لقضائه ، والتاريخ يصدق بذلك ، وتجارب الأمم توثقه وقد صدق الشاعر الفارسي حيث قال: « محمد ﷺ هو شرف العالم وكرامة الأفراد والأمم ، فمن أبى أن يستمسك بغرزه ويمشي في موكبه ، أرغم أنفه وكتب له الذل والصغار » وقد صدق الشاعر الهندي[1] حيث قال : « لا عجب إذا انقادت لي النجوم وخضعت لي الأفلاك والكواكب ، فقد ربطت نفسي بركاب سيد عظيم ، لا يأفل نجمه ولا يعثر جده ، ذلك هو البصير بالسبل خاتم الرسل ، إمام الكل محمد ﷺ الذي وطأت قدمه الحصباء فأصبحت إثمداً يكتحل به السعداء » .

إن هذا الانفصال – أيها الإخوة الكرام – عن الدوحة النبوية المباركة ، وإن هذا الانقطاع عن الموكب المحمدي المقبل ، وعن ركبه الميمون ، خسارة لا تعوض بشيء ، إنها لا تعوض بأعظم ثروة ، ولا بأوسع دولة ، ولا بأروع مظهر ، إنها لا تعوض بلباقة أو كياسة أو سياسة ، أو حذاقة للغات ، أو براعة في تقليد الأزياء ، لأنه تخلف عن ركب الحياة وانقطاع عن معين المعنويات ولا عوض عن الحياة والمعنويات والروح في المظاهر والأزياء ، واللغات والثقافات ، والتقليد والمحاكاة ، وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يؤمنون بأن الإسلام هو مصدر عزهم ، ومطلع فجرهم ، وفاتحة عهدهم الجديد ، وسر قوتهم وانتصارهم ويصرحون بذلك أمام الناس ، يدل على ذلك دلالة واضحة ما رواه ابن كثير في تاريخه ، وقال: « لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة

(١) هو العلامة الدكتور محمد إقبال .

فنزل عن بعيره ونزع موقيه فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة : قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا ! قال: فصك في صدره وقال : أو لو غيرك يقولها يا أباعبيدة ! إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله »[1].

وهذا هو الواقع التاريخي ، فكلما حاول العرب أن ينالوا الشرف بغير هذا الدين أخفقوا وذلوا ، وقد كان اسمهم يرجف القلوب ويملؤها مهابة وروعة ، وقد خرجوا من جزيرتهم في ثياب صفيقة مرقعة ونعال وضيعة مخصوفة ، وذلك لسر خالد ، وهو أن الإنسان مفطور على إجلال الفائق والغرام بالمفقود ، وقد كان العرب يملكون الايمان واليقين والأخلاق التي كانت الأمم أفلست فيها إفلاساً شائناً ، ثم إن الذي فطر المادة والروح قد فرض على المادة أن تخضع للروح ، وفي التاريخ الإنساني ، ليس التاريخ الإسلامي فقط ، شهادات متصلة متسلسلة لانتصار الروح على المادة والمعنويات على الماديات ، وقد كان انتصار العرب على الروم والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً كثيرة في العدة والعتاد ، والمادة والآلات ، والمدنية والحضارة ، أروع شهادة لغلبة الروح على المادة .

كيف يجمل بالعرب والمسلمين ، أن يقلدوا هذه الحضارة الغربية ، وقد علم الذين درسوا تاريخ هذه الحضارة أنها تأسست على الظلم والعدوان والأخذ بالقشور ، والاكتفاء بالحس وإنكار

---

(١) «البداية والنهاية »٧/ ٦٠ .ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرطهما .

ما وراء ذلك ، وعبادة المادة والشهوات من أول يوم ، وهي خليفة الحضارة اليونانية الضالة أو المدنية الرومية الآثمة ، ثم إن الذين يتزعمونها اليوم هم أكبر جناة التاريخ ومجرمي الإنسانية ، وأقوى عامل من عوامل الفساد والشقاء والظلم والطغيان في العالم ، هم الذين ملأوا الأرض جوراً وظلماً وفساداً وشهوة ، وأقاموا في العالم مجزرتين من أهول مجازر التاريخ — أعني الحرب العالمية الأولى والثانية — ويستعدون لمجزرة ثالثة لعلها تكون المجزرة الأخيرة التي فيها فناء العالم وحتف الإنسانية كلها ، فإنهم سيستعملون فيها القنابل الذرية لا محالة ، وهم الذين استعبدوا الأمم وسخروها لشهواتهم ومآربهم . وأهانوا الشرق الإسلامي وحرموه الحرية والحياة ، ولا يزالون يعبثون به ،ويسخرون رجاله وقادته لأغراضهم ويضربون بعضهم ببعض ، فكان اللائق المنتظر من المسلمين والعرب أن يشتد بغضهم وعداؤهم لهذه الحضارة وأصحابها ، ولا يرى منهم ميل أو تشيع أو تقليد لهذه الأمم المجرمة الظالمة وحضارتهم الأثيمة ، وقد قال الله تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)[هود: ١١٣].

ولا أقصد بقولي « الحضارة الغربية »علوم الطبيعة البريئة ، والعلوم والآداب التي ليس عليها طابع أمة ، إنما أقصد بذلك فلسفة الحياة التي يدين بها الغرب — سواء المعسكر الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي — وهي الايمان بالمادة والقوة فقط ، وإنكار القيم

العالية والحقائق الغيبية ، هذه الفلسفة المادية التي ولدت هذه الحضارة المادية ، وظهرت هذه الحضارة المادية في النهامة بالمال والحرص على تملك أعظم مقدار منه للتمتع بالذات ، وانتهاب المسرات وإحراز الجاه والسمعة والمنزلة عند الناس ، والتغافل عن كل ماعدا ذلك ، ومما جاءت به الأديان السماوية من العقائد والأخلاق ، هذه الفلسفة التي تعارض الفكرة الايمانية على خط مستقيم ، التي تقول :

(وَمَا هذهِ الحَيَاةُ الدُّنيَا إلا لَهوٌ ولَعِبٌ وَإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كانوا يَعلَمُونَ) [العنكبوت : ٦٤] .

وتعارض قول النبي ﷺ : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » هذه الفلسفة التي لا تؤمن بقوله تعالى :

(إنَّ أكرَمَكُم عِندَ اللهِ أتقَاكُم)[الحجرات : ١٣] ولا بقوله : (قَدْ أفلَحَ مَنْ تزَكّى وَذَكَرَا سْمَ رَبّهِ فصَلى) [الأعلى : ١٤ ــ ١٥] .

بل تهتف في غير حياء وتحرز : « إن أكرم الناس أغنى الناس »و« قد أفلح من اغتنى واقتنى ، وأيسر وأثرى ، وأكل الشهي اللذيذ ، ولبس الفاخر الجديد ، وملك عدداً من السيارات والقصور » .

إن تقليد هذه الحضارة لم يكن لائقاً بالمسلمين والعرب ، يوم كانت هذه الحضارة في أوجها وزهوها ، وكانت تنتج وتثمر ، وكانت شابة فتية ، أما وقد شابت ووهنت وبدأت تتقدم بخطى سريعة إلى الإفلاس والإخفاق ، بل إلى الانهيار والانتحار ، فتقليدها أقبح وأخزى ، ويعلم الذين يتصلون بمراكزها وتياراتها

الجديدة ، أنها قد أصبحت فاكهة قد أينعت وحان قطافها ، وأنها إذا لم تقتطفها يد قوية فإنها ستسقط بنفسها على الأرض وتتناثر فالذين يربطون حظوظهم ونفوسهم بهذه السفينة المتكسرة التي قد أشرفت على الغرق يسيئون إلى أنفسهم وإلى أمتهم ، قبل أن يسيئوا إلى عقيدتهم وملتهم .

إن المسلمين في الهند وغيرها من الأقطار الإسلامية غير العربية كانوا يتوقعون من العرب أن يكونوا أشد اعتزازاً بهذا الدين وأشد عداء للأمم الأوروبية ، التي انتزعت منهم السيادة العالمية والقيادة الفكرية والسياسية ، وأحرص على الدعوة الإسلامية ، وأعظم تألماً لما هو واقع في العالم من المآسي والمهازل ، ولما وصلت إليه الإنسانية من الهبوط والتدلي ، كانوا يتوقعون أن يكون العرب أرسخ عقيدة وأشد حماسة في كل ذلك من المسلمين الذين آمنوا بدعوتهم ، وكانوا أتباعهم في هذا الدين ، لأن العرب أسرة النبي ﷺ وقبيلته ، ولأن القرآن ــ الذي ارتعشت له الجبال وزلزلت به الأرض ــ إنما نزل بلغتهم ولا يزالون يفهمونه ويحسنون قراءته ولا يحزن الإنسان مثل ما يحزنه إذا رأى تقليداً من إمام ، وضعفاً من قوي ، واستجداء من غني .

إن في الهند وباكستان ــ أيها السادة ــ رجالا لم تزدهم دراسة العلوم العصرية والاطلاع على النظم الغربية ، والاتصال بمراكز الحضارة الأوروبية ، والاجتماع برجالات الغرب وقادة الفكر والسياسة فيه ، لم يزدهم كل ذلك إلا اعتزازاً بالإسلام والتضلع من حب محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، والإيمان بأن

الإسلام هو الرسالة الأخيرة ، وأن تعاليمه موافقة لكل مكان وأوان بل هي سابقة للزمان ، وأن الإنسانية في كل طور من أطوار حياتها تجد فيها الغوث والنجدة ، ولم يزدهم كل ذلك إلا يأساً من الحضارة الغربية التي لا تستطيع أن تحمل نفسها وتنجد رجالها ، ولم يزدهم إلا سخطاً على قادة الغرب الذين قد ظهر إخفاقهم في حل المعضلات الإنسانية ، وتجلى إفلاسهم في المؤهلات والوسائل التي يحلون بها هذه المعضلات ، وأعظمها الإخلاص والايمان ، ويقودون العالم إلى الغاية الرشيدة ، ولكنهم لكبرهم لا يعترفون بهذا الإفلاس ، ولا يبحثون عن مصدر جديد يحلون به هذه الأزمة التي حلت بالإنسانية كلها بسببهم ، وينجدون به الإنسانية التي تملكوا زمامها واحتكروا زعامتها ، إن كل ذلك لم يزدهم إلا ثقة بهذا الدين وتصلباً في عقيدته وشريعته ومحافظة على آدابه وحضارته ، ولو شئت لعددت عشرات من هؤلاء الأساتذة المؤمنين والعلماء الراسخين ممن يجمعون بين الثقافة العصرية الواسعة والعقيدة الإسلامية الراسخة وكان بعضهم من أفذاذ هذا العصر في بعض العلوم الغربية والفلسفة والسياسة والاقتصاد والأدب .

ولكن ذلك لا يزيد في شرف النبي الأمي ﷺ بل يشرف هؤلاء الذين ينتمون إلى دينه ويعدون من أتباعه ، ولم يزل في كل عصر من عصور الإسلام نوابغ وعباقرة من أذكياء العالم ، وكبار ملوك الأرض يفتخرون بالدخول في أتباع النبي ﷺ ويعدون ذلك أكبر مفخرة لهم ، وينشدون بألف لسان :

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العـالمين خراب[1]
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

إن الاعتزاز بالإسلام- أيها السادة - والظهور به تقدم ونبوغ وذكاء ، ورمز للاستقلال الفكري ، بالعكس من ذلك الانسحاب من الإسلام وتقليد الحضارة الغربية ، والإلحاح على تطبيق النظم اللادينية في بلاد الإسلام وفي بيوت الإسلام ، رجعية وجمود وضعف عقلية وتفكير ، ورمز لمركب النقص ، وقد انقضى من غير رجعة ذلك العصر الذي كان فيه يعد الظهور بالمظهر الغربي وتقليد الأساليب الغربية في الحياة وإطراء النظم الحديثة تقدماً ورقياً ، وظرافة وكياسة ، أما الآن فقد ضجر الغربيون أنفسهم من حضارتهم وانتقدوها انتقاداً لاذعاً وتهكموا بها ، وقالوا: إنها حضارة مرتجلة لا تقوم على تصميم وتفكير سابق ، وإنما قفزت من أوضاع كانت تسود في القرون المتوسطة المظلمة .

وبعد ذلك كله لا أرضى لكم أن تكونوا رجالاً لا يهمهم إلا أن يكونوا أداة حقيرة في هذا الجهاز المادي ، ولا تهمهم إلا المصالح الشخصية والرفاهة الفردية ، وأن يكونوا ذلك الساقط الهمة الذي ذمه الشاعر العربي الكريم حاتم الطائي بقوله :

لحا الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما

ويا ليت فتيان العرب بلغوا في علو همتهم ، وطموحهم مبلغ الشاعر الجاهلي امرئ القيس حيث قال :

---

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني ديوانه : ص: ٢٤

ولو أنني أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنني أسعى لمجد مؤثـــل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

إن المجد المؤثل – أيها الإخوان – وهو الذي لم يحلم به الشاعر الطموح ، هو الذي نشده عمر بن عبد العزيز فأدركه وسعى له طارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفي فوصلا إليه ، وهو الذي يليق أن يكون مثلكم الكامل وغايتكم المنشودة ، إنكم أحق الناس بأن تثوروا على جاهلية القرن العشرين كما ثار آباؤكم على جاهلية القرن السادس المسيحي ، وأن تتمردوا على المادية العصرية كما تمرد أسلافكم على مادية عصرهم ، وتضحوا برفاهتكم وترفكم وأمانيكم المعسولة في سبيل الإسلام وفي سبيل المصلحة العامة والسعادة البشرية وتنضموا إلى الراية المحمدية ، وهي راية العدل وراية الحق وراية الله في العالم التي اختارها الله لكم كراية واختاركم لها كأمة وجند إلى آخر الدهر .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّيْنِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيْداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيْمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيْرُ ﴾[الحج : ٧٨] .

القوميّة في ميزان العلم والتاريخ وواجب العرب [1]

يحلو لي ويسعدني أن أتحدث عن موضوع « الأخوة الإسلامية فوق العصبيات » في مكان انطلقت منه هذه الفكرة المقدسة ، وهذه الثورة التي غيرت مجرى التاريخ ، وفي أيام نودي فيها بهذا المبدأ ، فعلى غلوة [2] من هذا المكان الذي نجتمع فيه سمع الناس رسول الله ﷺ يقول بأعلى صوته: « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ

(١) محاضرة ألقيت في مؤتمر رابطة العالم الاسلامي في اجتماعه الأول المنعقد في مكة المكرمة يوم ١٤ ذي الحجة عام ١٣٨١ وقد حضره كبار الشخصيات الاسلامية في العالم العربي الاسلامي وعدد كبير من ممثلي الأقطار الاسلاميــة والعربية الذين حضروا بمناسبة الحج ودعوة المؤتمر .

(٢) الغلوة : رمية السهم أبعد ما تقدر عليه وكان الاحتفال في المعابدة التي لا تبعد الا غلوة سهم من المسجد الحرام الذي خطب فيه رسول الله (ص) يوم فتح مكة وقال هذه الكلمة .

اللهِ أَتْقَاكُمْ)[الحجرات : ١٣][١]

لقد كان من أعظم ما أتحف الإسلام به الإنسانية الأخوة التي تقوم على أساس العقيدة والفضيلة والكفاية والكفاح ، تجمعها كلمة التقوى ، فكان فتحاً جديداً في تاريخ الإنسانية ، لقد كانت الجامعات والأخوات تقوم في الزمن القديم — ولا تزال — على أساس السلالة والنسل ، والوطن واللون ، والحرفة والصناعة واللغات وذلك كل ما عرفه التاريخ ، ولا ظلم أعظم من ذلك .

فقد كانت هذه الجامعات والروابط قوالب من حديد لا مرونة فيها ، وكانت جدراناً تحول بين أعضاء الأسر الإنسانية لا يتخطاها الإنسان ولا يخرقها ، وإن كان عملاقاً في العلم والفضل والذكاء والصلاح ، وكأنما كتب على الأسرة الإنسانية أن تظل موزعة مشتتة متناكرة لأنها تقوم على أسس خارجة من نطاقها باقية معها طول حياتها .

لقد كان هذا التوزيع ، وهذه الجامعات الضيقة الصغيرة أقوى عوامل الهدم والتخريب والدمار والشقاء ، والحروب التي لا آخر لها ، وقد كانت كل جامعة من هذه الجامعات قد أحاطت نفسها بهالة من التقديس والتمجيد والقصص والأساطير ، وترى لنفسها

---

(١) سيرة ابن هشام . وقد روى الترمذي وغيره عن النبي (ص) أنه قال : « إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » .

فضلاً على غيرها يخولها حق الاستعباد والاسترقاق ، وحق التدمير والتخريب ، تعتبر نفسها من أشرف المخلوقات وصاحبتها من أحط الحيوانات ، وتعاملها معاملة الدواب والكلاب فكانت مذابح هائلة ، وقسوة فظيعة ، وسخرة ظالمة ، ومآس محزنة ، ومهازل مخجلة .

ونشأت عصبيات في داخل العصبيات ، وتلك طبيعة العصبيات التي تقوم على أساس غير المبادىء الصالحة وانقسمت الجامعات على نفسها وتكونت فيها جامعات صغيرة ، ثم تكونت في هذه الجامعات الصغيرة جامعات صغرى ، قد لا ترى إلا بالمكبرة ، وحجتها وأساسها حجة الجامعات الأم وأساسها ، فسلالة أفضل من سلالة ، والوطن الخاص أفضل من وطن عام ، وأبناء قرية أفضل من أبناء بلد ، وأبناء بلد أحب من أبناء مديرية ، وأبناء مديرية أعز من أبناء ولاية وهذا كله ما يسوغه منطق الوطنية ، وتغرى به فلسفة تقديس السلالة أو تمجيد الوطن ، ولون إذا خف في السواد كان أفضل من لون قاتم ، وأسود حالك ، أو سواد إذا أغرق في الحلكة كان أفضل وأدل من سواد يشبه السمرة ، وأبناء الجد الخامس أفضل من أبناء الجد الثامن ، والهذليون والناطقون بلغتهم أكرم من بني طيىء وبنو عبد شمس أفضل من بني عبد الدار ، وبنو مخزوم أحق بالسيادة من بني تميم ، ولكل حجة تعتمد على المآثر والروايات ، وعلى فلسفة فضل الدم وأصالة النسب ، وحسن الأرومة وطيب الأعراق وفصاحة اللهجات . وهكذا كل حرب على صاحبه ، يعامله معاملة العدو البغيض والأجنبي الغريب ، وأصبح من العسير الشاق إزالة هذه الحواجز وجمع هذه الألوية كلها تحت لواء واحد ،

لواء قبيلة واحدة أو شعب واحد فضلاً عن الجامعة الإنسانية التي لم يكن للإنسان القديم أن يحلم بها أو يفكر فيها .

وأصبح الإنسان يائساً من مستقبله لا يفكر في أفضل مما هو فيه ، فلا يسمح المجتمع الهندي ودستوره الذي وضعه الكهنة ورجال الدين أن ينتقل الإنسان من حرفة إلى حرفة ، أو من طبقة إلى طبقة ، ولا يسمح القانون الايراني أن ينتقل إنسان في الامبراطورية الايرانية من مجتمع إلى مجتمع آخر ، ومن مستوى إلى مستوى آخر وليست الكفاءات والمواهب والكفاح في سبيل عقيدة وفضيلة هي القنطرة التي يصل بها الإنسان إلى السعادة ، بل هي قنطرة الولادة وقنطرة الدم واللون والنسب ، التي تصل بالإنسان إلى السعادة . وليست في الحقيقة قناطر وجسوراً يتدرج عليها الإنسان إلى الرقي والسعادة والتفوق ، بل هي رافعات تحمل الإنسان من الحضيض إلى السمو طفرة واحدة لادخـــل فيها لإرادته ولا لسعيه ، فأنشأ ذلك في الإنسان اليأس والتشاؤم وعطل ذلك قواه وأخمد همته وجمد قريحته ، وأخمد فيه جذوة الذكاء والطموح والتنافس الذي يرجع إليه الفضل في اشتعال المواهب ، والإنتاج في كل فن من الفنون ، وفي كل جانب من جوانب الحياة فمصيره معلوم محتوم ، وحوله خط محدود مرسوم ، لا يتجاوزه ولا يتخطاه مهما أوتي من النبوغ ومهما تحلى به من الفضائل ، ومهما تخلق به من أخلاق وفواضل ، ومهما كافح في سبيل المجد ، فابن طبقة هو ابن طبقة ، وصاحب حرفة هو صاحب حرفة، والأسود هو الأسود والأبيض هو الأبيض ، وجاهل بني ربيعة أكرم من عالم بني تغلب

وكلب في بني ذؤيب أفضل من الجواد في بني أسد، فكلها حظوظ وجدود، جاءت وانحدرت من آباء وجدود.

جاء الإسلام وضرب هذا الأساس الذي قام عليه المجتمع الجاهلي الزائف ضربته القاضية الحاسمة المعروفة في التاريخ، فنقض هذا الأساس، وأسس مجتمعاً جديداً على أساس الايمان والعقيدة وعلى أساس الصلاح والفضيلة، وعلى أساس الكفاءة والكفاح ونادى بوحدة الإنسان وبكرامة الإنسان وبجدارة الإنسان لكل شيء، فمرة قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء: ١]. ومرة قال: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [الإسراء: ٧٠] ونادى بقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات: ١٣] ومرة جهر: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) [المؤمنون: ١٠١].

وأعلن أن العمدة والفارق والأساس هو السعي والكفاح وقال: (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ

يُرى ثُمَّ يُجزَاهُ الجزَاءَ الأَوفى) [النجم : ٣٩، ٤١]
وأن الفرق في النتائج والجزاء أساسه الفرق في السعي والجدارة ومقدار الكفاح فقال :

(يرفعُ اللهُ الذينَ آمنُوا منكُم والذينَ أوتوا العِلمَ درَجَاتٍ) [المجادلة : ١١].

وأن السعادة والحياة الطيبة مضمونة لمن أوفى شروطها وأدى حقوقها من أي جنس أو سلالة كان فقال :

(مَنْ عَمِلَ صَالحاً مِنْ ذَكَرٍ أوْ أنثى وَهوَ مُؤمِنٌ فلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيِّبَةً ولَنَجزِيَنَّهُمْ أجرَهُم بِأحسَنِ ما كَانُوا يَعمَلُونَ)[النحل : ٩٧] .

وصرح بأنه ليس الأمر بالأماني والأحلام ، وبمجرد الانتساب إلى أجداد وأديان ، إنما هو بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح والاجتناب عن المعاصي ، وان قانون الجزاء الإلهي عام شامل لا يميز بين جنس وجنس ، وسلالة وسلالة ، وديانة وديانة ، فقال :

(ليسَ بِأمانيِّكُم ولا أمانيِّ أهلِ الكِتَابِ مَنْ يَعمَلْ سُوءاً يُجزَ بِهِ ولا يَجِدْ لهُ مِنْ دونِ اللهِ وَلِيّاً ولا نَصيراً) [النساء : ١٢٣] .

على هذا الأساس العادل المعقول قام أفضل مجتمع عرفه التاريخ وهو المجتمع الأول الذي أرسى قواعده الرسول الأعظم ﷺ وأن المقياس فيه التقوى الذي يجمع بين معاني الكفاءة والكفاح وكان ذلك مقياس الفضل والزعامة والرئاسة والشرف ، وهو

آخر مجتمع حكم فيه هذا المقياس وقام المجتمع كله على هذا الأساس وسمع الناس للمرة الأولى في المجتمع العربي القائم على أساس العربية والفخر بالمضرية والقرشية ، سمعوا سيد مضر يقول لفارسي تداولته الأيدي بالاسترقاق والسخرة: «سلمان منا أهل البيت»[1] وسمعوا أمير المؤمنين الذي يهابه كسرى وقيصر يقول لعبد حبشي أجحف به الضرب واشتدت به الإهانة: «سيدنا بلال» ويعظم سالماً مولى أبي حذيفة ويراه جديراً بالخلافة ويقدم موالي قريش لسابقتهم في الإسلام وحسن بلائهم في الجهاد على سادة قريش وغطارفتها ، مثل أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمر وعكرمة بن أبي جهل .

ولأول مرة في التاريخ ماتت في هذا المجتمع ، الذي كان يتسع ويتضخم يوماً فيوماً، العصبيات الجاهلية القائمة على أساس النسب والدم ، والعرق واللون ، والوطن واللغة ، وعد الهتاف بها والتناصر على أساسها ومحاولة إحيائها رذيلة وإفساداً ورجعة إلى الجاهلية ورجعية فقال القرآن :

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)[الفتح :٢٦] .

وقال الرسول ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من غضب لعصبية»[2] وقال

(١) جزم الحافظ الذهبي بضعف سنده وقال الهيثمي : فيه عند الطبراني كثير بن عبد الله المزني ضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات.

(٢) رواه أبوداود عن جبير بن مطعم وروى مسلم في صحيحه : «ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة ، أو يدعو إلى عصبة ، أو ينصر عصبة فقتل فقتلته جاهلية» .

وقد سمع الأنصار يقولون : يا للأنصار... والمهاجرين يقولون: يا للمهاجرين... : « دعوها فإنها منتنة » ، ثم قال : « ألا ما بال دعوى أهل الجاهلية ، ألا ما بال دعوى أهل الجاهلية »[١] وتلك نهاية لا ينتظر من نبي أدبه ربه فأحسن تأديبه أكثر من ذلك ، وجاء في حديث صحيح : « من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى جهنم قالوا : يارسول الله وإن صام وإن صلى ؟ قال : وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل »[٢].

وهكذا ظل المجتمع الإنساني قائماً على أساس التقوى وعلى أساس المبدأ والعقيدة يتحكم فيه مقياس الكفاءة والكفاح حتى جاء عصر القوميات المشؤوم في اوروبا ، وكانت مرحلة طبيعية في حياتها ومجتمعها ، فلما انهارت الكنيسة اللاتينية بأخطائها وجناياتها وسفاهتها ، وبتأثير الحركة الاحتجاجية التي قام بها « لوثر » وبالنهضة العلمية والعقلية التي انبثقت في القرون المظلمة ، أصبحت الأمم الأوربية قطعاناً من البشر لا تربط بينها جامعة دينية أو مركز روحي ، فقد فقدت النصرانية المتعثرة سلطانها على النفوس والرؤوس فلجأت اوروبا بطبيعة الحال إلى قوميات مختلفة تربط بين أفرادها المشتتين الضائعين ، وكانت بضاعة المفلس ومأوى الطريد وألهبت بها الشعور السياسي والشعور بالواجب وقوة الدفاع عن البلاد والحمية التي تعتمد عليها وتلتجىء إليها في الأزمات ، وإنها – ولا

(١) رواه أحمد في « المسند » ٣/٣٣٨ .

(٢) مسند أحمد ٤/١٣٠ .

شك ــ حصن الأمة التي نضب فيها معين العقيدة والروح ، وأفلست في مقومات الحياة وانهارت في الأخلاق ، واستعانت أوروبا الحائرة المضطربة بهذا السلاح حيناً من الدهر فاستعمرت بقوتها أقطاراً شرقية سلطت أبناء جنسها على رقاب المحكومين ، وكانت هذه القومية مصدر قوتها وسر توحدها وانتظامها في سلك واحد .

وبدأت هذه النزعة تعمل عملها في الداخل وتبيض وتفرخ ، وانقسمت اوربا نفسها في معسكرات قومية مختلفة ، فانكلترا قومية ومعسكر ، وألمانيا قومية ومعسكر ، وفرنسا قومية ومعسكر ، والمجر قومية ومعسكر ، والنمسا قومية ومعسكر ، وهكذا .

وجاء اليوم الذي لا مفر منه ، اليوم الذي تحاربت فيه هذه المعسكرات على نفس أساس القوميات ، فكانت حروب قبل الحرب العالمية الأولى ولم تكن حرب مبادىء وعقائد ، إنها كانت حرب قوميات دفعت إليها وحملت عليها النّعرَة القومية والطموح القومي وتلك طبيعة الفلسفة القومية إذا نضجت واختمرت ، ولا تلام الشجرة على ثمارها الطبيعية ، وجاءت الحرب الأولى بويلاتها .

ولما خرجت أوروبا من هذه الحرب الأولى مثخنة بالجراح ، منهوكة القوى ، مرهقة بالديون والتبعات بدأ العقلاء في أوروبا يفكرون ويتحدثون على أساس أوسع من القوميات والوطنيات وبدأ الحديث منذ ذلك الحين عن الإنسانية والآفاقية ، ولكنه حديث خافت محدود ، كأنه مصباح راهب ضعيف يتراءى من بعيد في صحراء مظلمة .

وجاءت الحرب الثانية المدمرة ، ولم تكن إلا على أساس ما

أثارته القومية المتطرفة من الطموح المسرف والمجد الكـاذب والمغالطات الخداعة ، والدعايات الكاذبة ، واستفزاز الشعور القومي ولما وضعت الحرب أوزارها - باضطرار من بعض واختيار من بعض - قويت حركة الكراهة والتذمر من القومية ، وأصبح نوابغ الفكر الحديث والمفكرون الأحرار ينكرون عليها في صراحة وقوة ، ويدعون إلى الجامعة الإنسانية والرابطة العالمية في علم واستدلال ، ويؤلفون في ذلك كتباً قيمة .

وقد تأسس المعسكر الشيوعي على أساس عالمي ورفض القوميات وتأسس على مبدأ وعقيدة وشعار ، واتجهت دعوته إلى جميع الأمم والشعوب والبلاد ، ومن العار علينا نحن المسلمين والعرب أن نتمسك بالقومية وندعو إليها والعالم المتمدن بمعسكريه المتنافسين يتجه إلى العالمية والآفاقية .

ولكننا مع الأسف نبدأ دائماً من حيث تنتهي أوروبا. فقد ولى عصر القوميات هناك وبدأ في شرقنا الإسلامي ، وكنا دائماً في غنى عن هذه القوميات والعصبيات بل كنا وحدنا حاملي راية الثورة على هذه النزعة التي هي أثر من آثار الاجتماع الإنساني القاصر الذي لم يبلغ الرشد ، وكان علينا أن نحارب هذه النزعة الممزقة لوحدة الإنسان ، المفرقة لشمل الأديان .

وكان العود إليها أو الدعوة إليها عوداً إلى عصر الجهالة والشقاء ورجوعاً بالإنسانية والمدنية إلى الوراء ، وكفراً بنعمة الله التي أنعم بها على المسلمين وأغناهم بها عن روابط محدودة ، ضيقة مصطنعة ، مفرقة بين الأمم باعثة للأنانيات ، مثيرة للشهوات

سطحية لا تملك قدسية عقيدة ولا قوة عاطفة ، ولا تستطيع أن تجمع بين شعوب مختلفة ، أو بلاد متفرقة ، وقد ثبت إخفاقها في محاولة الجمع بين شعوب تتكلم بلغة واحدة وتدين بدين واحد ، وتجتمع في قضايا كثيرة وعدوها مشترك .

أما قوة الجامعة الإسلامية ، ومتانة الأخوة الإسلامية فلا تحتاج إلى دليل والتاريخ كله مليء بمعجزات هذه القوة وروائها ، قد استطاع صلاح الدين الأيوبي وهو زعيم الجهاد الإسلامي وكردي من أصل أعجمي أن يجمع تحت رايته العرب والأكراد والمصريين والسوريين والسودانيين وغيرهم من الأجناس والسلالات ويثير فيهم روح النخوة الإسلامية والحماسة الدينية ، واستماتوا في سبيل الشهادة في سبيل الله ودفع الصليبيين عن الأراضي المقدسة ، ولم تظهر ثورة أو جموح أو عصيان أو ضجر في جانب من جوانب معسكره العالمي العظيم ، الذي كان يجمع خليطاً من البشر وهيئة من الأمم ، ولم تكن الرابطة بينهم غير رابطة العقيدة والحماسة الدينية ، وحسبنا هذا المثال الرائع الذي لا يزال العالم الإسلامي يغتبط به .

والذي يحدث العرب باحتضان هذه الديانة الجديدة أو الفلسفة الجديدة يسيء إليهم إساءة لا نظير لها في التاريخ فإنه يحاول أن يقطع صلتهم عن هذا العالم الفسيح الذي يدين بحبهم ، يؤمن بإمامتهم إرضاء لأقلية غير مسلمة تعيش في العالم العربي ، وهي تعد بمئات الألوف ، والأقلية المسلمة في الهند وحدها يبلغ عدد أفرادها خمسين مليوناً ، ويفوق عدد غير المسلمين في العالم العربي بأضعاف أضعاف

فضلاً عن عدد المسلمين في باكستان وأندونيسيا ، وفي غيرهما من الأقطار ، فإنه عدد ضخم يربو على خمسمائة مليون ، وتلك مساومة خسارة العرب فيها محققة و واضحة .

والذي يدعو إلى القومية العربية في بلاد العرب يعطي دعاة القومية المتطرفة في الهند وتركيا وفي غيرهما من البلاد ، ويعطي دعاة الجاهلية في بلاد شرقية كثيرة حجة يقيمونها على المسلمين الذين لا يزالون متمسكين بالجامعة الإسلامية ولا يزالون ينظرون إلى الجزيرة العربية كمركز روحي ومصدر إلهام ، ويفت في عضد المسلمين ويحرج موقفهم مع دعاة القومية في بلادهم ، ويفقد العرب شخصيتهم العالمية الرئيسية التي منحهم الإسلام إياها والتي تمتعوا بها مدة طويلة ، ويجعلهم ينطوون على نفوسهم ويعيشون في عزلة عن العالم وعن قضاياهم الكبرى ثم ينقسمون على أنفسهم ويتوزعون في معسكرات صغيرة ، وتنشأ قوميات في ضمن قوميات ووحدات في بطن وحدات ، وتلك طبيعة القومية لا تستطيع أن تسد أبواب القوميات الصغيرة بل هي التي تفتحها وتمهد العقول وتثير العواطف للاستقلال واستغلال نفس المبدأ ونفس الطريق .

لقد كان غير متوقع وأبعد من كل قياس أن تنهض دعوة القومية والعصبيات الجاهلية في بلد عربي ، وهو البلد الذي تزعم الدعوة الإسلامية ودعا إلى الجامعة الإسلامية ، ولكن إذا وقع هذا الحادث الذي لم يكن يتوقعه أحد فعلى الجزيرة العربية وعلى بلد هو مهبط الوحي ومطلع النور ومعقل الإسلام ، أن يحارب هذه الدعوة الهدامة بكل قوته وعزمه ، وأن يجند لذلك كل ما أوتي من قوة ووسائل ، وأن يعتبره أفضل جهاد وأعلى عبادة في

هذا العصر ، وأن لا يكون ذلك خاضعاً لمصالح سياسية وعلاقات دولية وأوضاع محلية ، فكل ذلك عارض طارىء بل يكون ذلك في سبيل العقيدة والمبدأ قياماً بالواجب وأداء للأمانة ووفاء بالحق ومحاربة للباطل وجهاداً في سبيل الله .

ونحن المسلمين في خارج العالم العربي لا نرضى ولا نقبل أن تنشر الثورة والدعوة إلى الجاهلية في معسكر محمد ﷺ وعاصمته ويجب أن لا ترضى بذلك الجزيرة العربية والأقطار العربية ، وأنا ومن بأن النصر مضمون والفتح موعود إذا صحت النية وأخلصت القلوب : (إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقدامَكُم) [محمد : ٧]

(وَكَانَ حقاً علينا نصرُ المُؤْمِنِيْن) [الروم : ٤٧] .

والقومية في كل جانب من جوانب الأرض سفينة تنخرت وتفككت ألواحها ، وتناثرت مساميرها ، وتحارب ربابينها ، وكتب عليها الغرق ، فلا يجوز للعرب أن يلتجئوا إلى هذه السفينة المضطربة المشؤومة وعندهم سفينة النجاة التي تسع العالم كله ، وتوصل الناس جميعاً إلى شاطىء السلام .

لا تحرموا الأوفياء للإسلام بموقفكم أيها العرب[1]

إنني أتضاءل أمام أي تكريم أشمل به في أي مكان وأخجل، فلست أراني أستحق تكريماً أو أي تفخيم لشأني، ويزيد خجلتي هذا الموقف الذي أقفه في بلاد أنا مدين لها في ديني وعقليتي وثقافتي وأدين لها بالفضل في كل ما أملكه أو ما يشار إليه بالبنان . فما من خير أعرفه إلا ومصدره هذه البقعة المباركة التي خرج منها أولئك الأبطال من الدعاة والمجاهدين إلى العالم كله، وإلى بلادنا – الهند – حاملين رسالة الإسلام والدعوة إلى الله، والدعوة إلى هجر الأوثان والأصنام والعصبيات القومية والوطنية، وإلى هجر كل نزعة تشغل مكان نزعة دينية، وأنا أقول لكم بشيء من الشجاعة غير مبال بما أنا فيه من مقام التكريم : إن آباء كثير من المسلمين في الهند كانوا يعبدون الشجر والحجر والروث، وكل شيء إلا الله سبحانه وتعالى، وكانوا معتزين بقوميتهم، مفتخرين بأمجادهم بل كانوا أكثر الناس فخراً بمآثر السلف المشركين، ولكن دعوة الإسلام هي التي حولتهم إلى أن يستصغروا ما كانوا يقدسونه ويستخفوا بما كانوا يعظمونه، فكفروا بجاهليتهم جملة وتفصيلاً، وتوارثوا العقيدة الإسلامية السمحاء جيلاً بعد جيل، ينقلها الآباء

---

(١) خطاب ألقي في حفلة تكريم أقيمت في جدة في مستهل ذي الحجة ١٣٨١ هـ ضمت عدداً من العلماء والأدباء والسفراء وأعيان البلاد .

إلى الأبناء بالأمانة والوفاء والنصح ، واستعذبوا في طريقها كل مكروه ، وواجهوا في سبيل دينهم كل صعب ، ولم يثن طول النضال هممهم ، ولم توهن الحروب المديدة عزائمهم في الله ، لأنهم كانوا يعدون أنفسهم في جاهليتهم أمواتاً غير أحياء ، والإسلام بعثهم من جديد وجعلهم أحياء بما للحياة من معنى ، وتغلغلت العقيدة الإسلامية في أحشاء قلوبهم ، واستحكمت في نفوسهم ، وعادوا لا يرون خيراً إلا فيما جاء به محمد ﷺ ولا يعرفون شراً إلا في غير ما جاء به سيدنا محمد ﷺ ، وكان الدين وحده المقيم المقعد ، المثير المحرك ، الآمر الناهي ، وما كان يضاده أو يعارضه هو الكريه البغيض والشائن المهان .

هذا بعض ما كانوا عليه سابقاً – أيها السادة – وهذا ما صاروا إليه ، غير أن نضالنا ضد الجاهلية في وطننا لم ينته في عصر من العصور حتى في عصرنا هذا ، فكنا لا نزال في حرب دائمة مع من لا يقيم للإسلام وزناً ، أو يحاربنا لأجل عقيدتنا ويدعونا إلى تمجيد أبطالنا القدامى من المشركين ، ويدعونا إلى الاعتزاز بمآثرهم والفخر بما أسلفوا من علم وحكمة ، ويلومنا في تقصيرنا معهم ويطعن في عدم وفائنا لحقوقهم ، ويدعونا إلى كل هذا بلسان الفلسفة والأدب والعلم ، ونحن حاربنا هذه الدعوات برمتها ؛ ولا نزال نجابهها مصممين على دمغ ادعاءاتهم مضحين في سبيل الله بالأنفس والأرواح ، نستميت دون كرامة هذا الدين ، ونستهين بكل متعة من متع الحياة في سبيل هذه العقيدة الإسلامية ، عليها نموت وعليها نحيا ، وإن كنا نستطيع أن نلبي دعوة الجاهلية ونسهم

في إعلاء كلمتها ، وإن فعلنا لكان لنا شأن غير ما نحن فيه اليوم ، ولم يكن أي داع للاضطهاد وتقديم الضحايا ، ولكننا لم نفعل هذا ولن نفعله .

ولكن هناك عامل محرج عصيب لا نقدر على مجابهته وإن كنا قد ذللنا الصعاب ، وأنشأنا ما كان مستحيلاً في عرف التاريخ ، ولكننا ضعاف اليوم لمواجهة هذه البلية النكراء ، ويستعصي علينا حلها ، وهذه المشكلة — أيها السادة — هي أن مواطنينا وبني جيلنا في بلادنا يخاطبوننا قائلين : أيها المسلم الهندي ما بالك لا تعود إلى ملتك الجاهلية الأولى ، وقد أراد كثير من العرب أن يعودوا إلى جاهليتهم ، يدعون بدعوتها ويتعصبون لقوميتها ويحاربون من يخالفها ، فهذه الدعوة التي تبناها بعض العرب ،وعمت موجتها في عقلية النشء الحديث ،واعتملت فكرتها في أذهانهم قد خلقت لنا مشكلة ما لنا بها من عهد ، مع كثرة ما فوجئنا به ضد ديننا من المؤامرات ، ولكن هذه المؤامرة فاقت سائر المؤامرات السابقة صعوبة ودقة ، حتى استصغرنا دونها المآسي والمكاره ، وما أكثرها اليوم ، ودعوني أقول لكم بكل صراحة : إننا وإن كنا لا نزال مصممين على بقائنا مسلمين أوفياء لديننا مع اعترافنا بواجب النصح للوطن ، والإسهام في بنائه ، ولن يفت في عزيمتنا شيء في الدنيا على بقائنا مؤمنين بالله رباً ،وبالإسلام ديناً ، ولو انسلخت الدنيا بأسرها عن الإسلام ، لم يوهن عزيمتنا هذه لو عاد الأتراك إلى قوميتهم « الطورانية » وتمسكوا بشعائر جاهليتهم الأولى وعقائدها وعوائدها وأمجادها ، ولو عاد الفرس إلى قوميتهم الساسانية ، معتزين بأسلافها رستم وسهراب ، ولو

عادت مصر إلى فرعونيتها ، ولو عاد العرب – لا قدر الله – إلى جاهليتهم معتزين بأمجاد الجاهلية ، فلم نربط مستقبلنا ومصيرنا بأمة أو شعب ، وإنما ربطنا مستقبلنا ومصيرنا بإرادة الله ودينه ، فإن كفر الناس جميعاً لم يسعنا الكفر ، ولم يجز لنا التقليد ، وقد عاهدنا الله أن نثبت على دينه وأن نعض عليه بالنواجذ ، وقد ضمن الله ببقاء هذا الدين ، وأن لاتزال طائفة من هذه الأمة متمسكة به :

(فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هؤلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) [الأنعام: ٨٩] .

غير أننا ننظر إلى جزيرة العرب كمعقل للإسلام ومأرز الدين ، ونتمنى أن يكونوا كما كانوا سابقاً في مأخذ الزمام ، ومقدم القافلة يقودون العالم إلى الإسلام ، ويكونون المثل الصالح والقدوة الحسنة ، فمنها بدأ هذا الدين وإليها سيعود .

فإن كنتم – أيها السادة العرب – تريدون لنا أي مساعدة أو تحبون لنا أي نجاح فلا نسألكم عوناً من المادة والمال ، إنما نطلب منكم شيئاً واحداً ، وهو أن تكونوا مثلاً عالياً للصلابة في الدين وتكونوا كما كنتم في الماضي ، حاملي الرسالة الإلهية الخالدة ، تطاردون كل من ينادي بغير الله رباً وبغير الإسلام ديناً وعقيدة وإيماناً ، فإن فعلتم هذا أسديتم لنا كل عون ومساعدة .

إنه من واجب الأدب أن لا يتدخل أحد في هذه الأرض ، وقد رزق شيئاً من المعرفة وأدنى حظ من الإنصاف أن لا يدخلها إلا مطأطىء الرأس ، خاشعاً متواضعاً ، غاض البصر ، لاهجاً بثناء الله ، لما منّ الله عليه من فضل بمن خرج من هذه البقعة المباركة من المحسنين للبشرية جمعاء .

أجاهلية بعد الإسلام أيتها العرب [1]

أيها السادة الأجلاء ، إن هذه الحفلات التي تعقد لتكريم شخص إن كانت لها قيمة فهي أنها تتيح للضيف أو الشخص المحتفى به فرصة الاجتماع بمجموعة طيبة كريمة ، من رجال الثقافة وقادة الفكر وصفوة البلد ، وتهيىء له فرصة التحدث إلى هذه المجموعة الكريمة في مكان واحد ، وفي جو هادىء تسود عليه الثقة والتقدير وحسن الإصغاء ، وإن كان لشخصي الحقير المتواضع مبرر في أن يقبل التكريم من أصدقاء وإخوة كرام في هذا البلد المكرم فهو أن ينتهز هذه الفرصة الكريمة لحديث يليق بجلال هذا المكان وخطر هذا الزمان ، وبالوقت الثمين الذي ينفقه هؤلاء الإخوة الصفوة في هذا الاحتفال .

إنها أمانة مقدسة في أعناق الداعين إليها ، وإنها أمانة ثقيلة دقيقة في عنق من عقد هذا الاحتفال باسمه ولتكريمه ، فأرجو أن لا يسألنا الله جميعاً ولا يحاسبنا على ضياع هذه الفرصة الثمينة ، وعلى ضياعها في تكريم فرد ، وتزكيته على الله ، والشهادة له بما لا يعلمه إلا عالم الغيب والشهادة ، وفي الحديث الفارغ ، بل تكون هذه

(١) كلمة ألقاها المؤلف في الحفل الذي أقيم لتكريمه في مكة المكرمة في بستان عبد الله السليمان يوم ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٨٢ هـ (٢١ من ابريل ١٩٦٣ م) وقد ضم عدداً مشرفاً من أعيان البلد والشيوخ ورجال العلم والفكر .

الحفلة المخلصة فاتحة خير ، إثارة للمعاني الكريمة وإحياء لما اندرس من المعالم في النفس ، و تحريكاً – وأرجو عدم المؤاخذة – للقلق المبارك الذي كان مصدراً ومرداً لكل خير ولكل تقدم ولكل انقلاب صالح في تاريخ الإنسانية ، ويرجع إليه الفضل الأكبر في سعادة البشرية وانتشار الأديان السماوية وانتصار الدعوة الإسلامية وعدم رضاً بالحياة ومتعها وزخارفها وعدم ارتياح إلى الحاضر الموجود ، وطلب الغائب المفقود ، واستشراف للمستقبل البعيد السعيد ، وطموح إلى المزيد الجديد ، وملل من الرخاء والرخاوة ولذة في المجازفة والمغامرة ، وسآمة من الربح الدائم والنجاح المطرد ورغبة في التخلي عن بعض الفوائد والتحمل للخسارة في سبيل الصالح العام والمبدأ الحبيب .

إنه قلق ساور النفوس في هذا الوادي لأول مرة في التاريخ الإنساني بعد قرون متطاولة ، يوم لا يعرف الناس معنى القلق إلا في دائرة ضيقة ، محدودة شخصية ، حسد وبغض ، وطمع وحرص ، وخوف من الموت أو العدو ، وإشفاق من الفقر أو المرض ، وتذمر من العدو المتسلط ، أو الحروب الطاحنة الطويلة أو الغلاء الفاحش أو الضرائب المجحفة ، فأصبح فتيان في هذا الوادي لأول مرة يقلقون لمعان وحقائق أسمى وأوسع من هذه المعاني ، وألطف وأدق من هذه المعاني ، أصبحوا في قلق عن الماضي الضائع ، والمستقبل الرهيب ، عن العقائد الضالة والأعمال القبيحة والأخلاق الفاسدة ، يستمدون قلقهم عن مصير الإنسانية البائسة ، وعن الوضع الخطير الذي يعيش فيه العالم ، وقوي هذا

الشعور وغلب على كل شيء، حتى أقلق العالم وغير مجرى التاريخ وأفاض السعادة والهناء على الإنسانية كلها .

سادتي الأجلاء ، لقد قال الشاعر العربي قديماً .[1]

ولي كبد مقروحة من يبيعني   بها كبداً ليست بذات قروح
أباها علي الناس لا يشترونها   ومن يشتري ذا علة بصحيح

ومعذرتي إلى الشاعر الكبير ، فإن لي كبداً مقروحة مثله ولكني لا أريد أن أبيعها ، فهي رأس مالي وعمدة بضاعتي ، ولذتي في الحياة ولا خير في حياة لا قلق فيها ، ولا خير في إنسان ليس في جنبه قلب جريح وكبد مقروحة ، بل أود أن تكون لكل واحد منكم كبد مقروحة وقلب دام جريح ، وإني مع الشاعر الذي يتنعم بهذا الألم ويلتذ بهذه المرارة ، ويعتبرها قيمة الحياة ولذة العيش ، ويقول لعذاله على هذا السكر الدائم[2].

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما   شربت التي في تركها عندي الإثم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً   ومن لم يمت سكراً بها فاته الحزم
على نفسه فليبك من ضاع عمره   وليس له فيها نصيب ولا سهم

ومع الشاعر الذي يأبى التخلي عن الحب ويريد أن يورثه من بعده ، يقول :

أهيم بليلى ماحييت ، فإن أمت   أوكل بليلى من يهيم بها بعدي[3]

(١) اختلف في قائلهما فقد نسبا لابن الدمينة وللحسين بن مطير وللمجنون انظر «السمط» : ٦٦٠ .

(٢) الابيات لابن الفارض ديوانه : ٤٤ ، من قصيدته التي مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(٣) البيت في « الأغاني » ١٠٦/١٢ لنصيب .

أيها السادة ؛ إني لو وقفت غير هذا الموقف وإن كان لي حديث مع غير السادة العرب ، غير أهل الجزيرة وغير أهل الحرمين لكان الخطب هيناً يسيراً ومجال الكلام واسعاً فسيحاً ، إن أدق المواقف التي يقفها الخطيب هو الموقف الذي يجتمع فيه الحياء والألم ، فالحياء يقول: أمسك واعرف قدرك ، والألم يقول : هذا موقف تستطيع أن تنفس فيه عن كربتك ، فإياك أن تضيعه.

والقلب بينهما عصي طيع !

أيها السادة العرب : إن الله لم يكرمكم بالإسلام وبمحمد عليه الصلاة والسلام فحسب ، بل أكرمكم زيادة إلى ذلك بحراسة هذا الدين وبالقيام به والدعوة إليه ، وآثر بلدكم بأن يكون مصدراً للهداية ومعقلاً للدعوة ومثابة للناس :

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) [الحج : ٧٨] .

فأوجب ذلك بحكم الشرف والعقل والذوق والمنطق أن تكونوا من أغير الناس على هذا الدين وأشدهم اغتباطاً بهذه الثروة واعتزازاً بهذه الكرامة ، وزهداً في كل ما ينافيه من دعوات ونزعات ، ومفاهيم وقيم وكراهية للجاهلية التي اكتويتم بنارها واشتهرتم بعارها في الزمن الماضي ، وأعظم الناس ايماناً بفضل هذا الدين وضخامة هذه الثروة ، وأحرص الناس على نشرها وتوسيعها وايصالها إلى أبعد الآفاق ، وأشدهم حباً للرسول ، النبي الأمي

العربي ، الذي تلتقون به في النسب والبلد والدم واللغة ، والذي كان ولا يزال مصدر الحياة الجديدة ، وصاحب الفضل الأكبر في تكوينهم ، والذي انبثق عنه تاريخكم الجديد الرائع ، وقد قال القرآن العظيم :

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) [الزخرف : ٤٤].

وثقة بقيادته وخلود رسالته ، وانه سيد الرسل ومنير السبل وإمام الكل في كل عصر وجيل.

إنني أصدق إذا قيل عن أي شعب من الشعوب الإسلامية : إنه خضع أخيراً للمفاهيم والقيم غير الإسلامية ، وإنه طغت عليه نزعة من النزعات التي لا يوافق عليها الإسلام ، والذي جاء به محمد رسول الله ﷺ للقضاء عليها ، وأنه أصبح يفكر بالعودة إلى جاهليته القديمة أو اقتباس بعض الأفكار والفلسفات من جاهلية الغرب الحديثة . فإن تأثير الدعوة الدينية في عقلية الشعوب والعناصر يقوى ويضعف ، ولأن الإسلام وصل إلى بعض هذه الشعوب بوسائط وعن طريق تبعد أحياناً وتطول أحياناً ، ولأن كثيراً منها قليل الحظ ضعيف الصلة باللغة العربية ، التي نزل فيها القرآن وعبرت بها الدعوة الإسلامية والحقائق الإسلامية عن نفسها ، إنني أصدق كل ذلك مع الأسف الشديد والحزن العميق لأن تاريخ الدعوات والأديان يؤيد ذلك ويعرض له أمثلة كثيرة ، ولكني لا أصدق إذا قيل لي : إن العرب بدأوا يفكرون هذا التفكير ، ويتجهون هذا الاتجاه ، ويخضعون لمفاهيم وقيم وروابط وجامعات

وأساليب للحياة لا تتفق مع الإسلام ومركزهم في تاريخ الإسلام والتي لجأت إليها بعض الأمم الجاهلية لإفلاسها الروحي والخلقي وقد عرفت ضررها أخيراً ، وأصبحت تزهد فيها وتبحث عن الأصلح الأنفع .

وإذا وقع ذلك لسوء الحظ في بعض نواحي هذه الأمة العربية العظيمة حار المهتمون بشؤون هذا الدين والمؤمنون بخلوده وعالميته والذين اعتادوا بأن ينظروا إلى العرب دائماً كأستاذ ومرشد وداعية لهذا الدين وممثله الأول ويستمدون منهم الايمان القوي والثقة التي لا تتزلزل ولا تضطرب لصلاحية هذه الرسالة في كل زمان ومكان وهي لا شك محنة يحار فيها الحكيم ويبتلى الخطيب اللسن بالعي والفهاهة ، فماذا يقول التلميذ الصغير لأستاذه الكبير إذا شك هو نفسه في الحقائق والمسلمات ومبادىء العلوم التي لقنها تلميذه ، وأراد أن ينقض ما أسسه (كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً) [النحل : ٩٢] وماذا يقول المريض الجاهل للطبيب الحاذق الذي يعصي بنفسه قوانين الطب ، ويتناول السم الناقع ويضرب عن الدواء النافع .

إذا كان سليل شرف وربيب نعمة وابن ملك قد شبل في نعمة أبيه وغذي بأطايب الطعام وألذ الفواكه ، واعتاد أن يجلس دائماً مع أبيه وأبناء أسرته الملكية وحاشيته على السفرة الملوكية والمائدة الفاخرة ، وأطلقت يده وحكم في كل ما تحتوي عليه مملكته الواسعة من المواد الغذائية الصالحة ، وحدائق عاصمته من أشهى الفواكه وألذ الثمرات ، إذا زهد هذا الشاب المدلل في سفرة بلاطه الملوكية وصار يعافها ويتنغص برائحة أطعمتها الشهية

ويزكم بها ، ونشأت فيه رغبة غريبة في فتات مائدة الخدم وما يرمى على السباطات والطرقات ، مما يفضل ويتعفن من طعام الفقراء وأولع بالجلوس مع الكناسين على موائدهم واستجداء الطعام من بيوت الناس ، كرهبان البوذيين في بورما ، ألا يرحمه الناس ويرثون له ، ألا يحار في شأنه العقلاء الحكماء ويعجز عن تفهيمه وإقناعه كبار البلغاء والخطباء ، إنه لا شك فساد في الذوق وانحراف في الفطرة وابتلاء لعاهل هذه المملكة العظيمة في ولي عهدها ، وابتلاء للمملكة وأبنائها وشعبها ورعيتها في مثلهم الكامل وزعيمهم المفدى وقائدهم المطاع .

إنني أشعر الآن وأحب أن تشعروا جميعاً أيها السادة الكرام ونحن نسمع في جوانب هذه المنطقة العربية الإسلامية هتافات : « القومية العربية » و« العروبة » و« نحن أبناء الفراعنة والعرب » « والعزة للعرب » .. إلى غير ذلك من الهتافات الجاهلية ، وأرى اندفاعاً متهوراً مجرداً عن كل أصالة وعصامية وابتكار ، والرغبة في تقليد الغرب في فلسفاته ونظمه وأساليب حياته وفي قيم الأشياء وطرق الترفيه وصوغ الحياة صوغاً غربياً خالصاً . إنني أشعر وأنا أسمع كل ذلك وأحب أن تشعروا جميعاً أيها السادة بالألم النفسي العميق والامتعاض الشديد ، والثورة الجامحة كالتي ملكت موسى حين اقترح عليه بنو اسرائيل أن يهيء لهم موسى أصناماً يعكفون عليها وآلهة يعبدونها حين مروا بأمة جاهلية على شاطىء البحر الأحمر عاكفة على أصنامها ، كيف تلقى موسى هذا الاقتراح العجيب وهذه الرغبة الغريبة ، أشبه برغبة ولي العهد الذي رشح وهيىء لولاية مملكة واسعة في الطعام المرذول المتعفن ، والتشبه بأسفل

الناس . وقد صور القرآن هذا المنظر الغريب الذي تجلت فيه الحكمة الإنسانية في جانب والغيرة النبوية في جانب آخر ، فكان من أبدع المناظر التي احتوى عليها هذا الكتاب المعجز فقال :

(وَجاوَزْنا بِبَني اسرائِيلَ البَحْرَ فأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أصْنامٍ لَهمْ قالوا يا موسى اجعَلْ لَنا إلهاً كما لَهمْ آلِهةٌ قال : إنّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُون .إنّ هؤلاءِ مُتَبّرٌ ما هُمْ فيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ . قال :أغَيْرَ اللهِ أبْغِيكُم إلهاً وَهُوَ فضّلَكُمْ على العالَمينَ) [الأعراف : ١٣٨ ، ١٤٠] .

وقد مر الرسول العربي الأعظم بنفس هذه التجربة فكان تصديقاً لقوله تعالى :

(ما يُقالُ لَكَ إلا ما قَدْ قِيلَ لِلرّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » [فصلت : ٤٣] .

وتصديقاً لقوله ﷺ :

« لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع » .

فقد روى الترمذي بسنده الصحيح عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها : ذات أنواط ؛ يعلقون عليها أسلحتهم ، قالوا: يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط [1] ، فقال النبي ﷺ

(١) قال ابن الأثير في « النهاية » : ذات أنواط : هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون ، أي يعلقون بها سلاحهم ، ويعكفون حولها .

«سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده ! لتركبن سنة من كان قبلكم »[1] .

وهاهو ذا الزمان يستدير كهيئته والتاريخ يعيد نفسه ، وبعض إخواننا المسلمين وسادتنا العرب يحنون إلى أصنام جاهلية ويتمنون ذات أنواط ، وذات أنواط شجرة جاهلية خالدة تؤتي أكلها الجاهلية في كل حين ، والفطرة الإنسانية هي الفطرة الإنسانية تزهد في الطيب الموجود وتطلب الخبيث المفقود ، وتعاف الطعام اللذيذ الشهي ، وتحن إلى الطعام المرذول الرديء، تسأم من اللباس النظيف القشيب ، وتولع بالطمر البالي المرقع الذي خلعه بعض الصعاليك ، بعد ما قضوا منه وطراً واستبدلوا به لباساً آخر ، وليس هذا الانصراف الذي نلاحظه في بعض الأوساط الإسلامية والعربية عن الإسلام الذي هو سابق للزمن والمعجزة الإلهية (صُنْعَ اللهِ الذي أتْقَنَ كُلَّ شَيْء) [النمل : ٨٨] وانصراف عن مثله العليا ومفاهيمه وقيمه الخالدة التي لاتزال الإنسانية متخلفة عنها ، وإقبالها بشغف زائد ولهف شديد وإجلال وتقديس إلى المثل التي أفلت شمسها وولى نهارها وانقضى أجلها في الغرب ، وأصبحت من مظاهر الرجعية والتخلف في العلم والتفكير ، ليس ذلك الانصراف وهذا الإقبال إلا مظهراً من مظاهر الطفولة القاصرة التي تزهد في الطعام اللذيذ الذي تهيئه الأم الرؤوم أو الأب العطوف ، وترغب في طعام الخادم أو الصعلوك الذي لا يوافق طبيعتها ولا مع مستواها ، وتلح على ازدراد اللقمة المرذولة المسمومة أحياناً .

---

(١) «سنن الترمذي» أبواب الفتن .

إن مما يشجي القلب ويحير الألباب أن يرى الإنسان أمام القائد يجري وراء من خلق لاتباعه ويحرص على تقليده ويرى في ذلك شرفاً ومجداً له ، والذي كان ينبغي له أن يتحاشى عن أن يحمل منة لأحد ويفضل الظمأ القاتل على الري الممتن به وينشد بيت الشاعر العربي ابن سناء الملك :

وأظمأ إن أبدى لي الماء منة وإن كان لي نهر المجرة مورداً

وقد بدأ هذا السيد الكريم الغني في ثروته يتهافت على كل مورد بل على كل سراب تهافت الظمآن على الماء والفراش على النور ، كأنه لا ماء عنده ولا نور . إننا أيها السادة العرب في بلادنا العجمية البعيدة عن مهد الإسلام ننتقد كل نابغة في التفكير وكل عملاق في العلم والفلسفة ، وكل عبقري في الذكاء والانتاج ، وكل زعيم من زعماء الأمة والوطن من غير المسلمين ، مهما عظمت مكانته وذاع صيته وكثرت مآثره ، على عدم تطفله على مائدة محمد ﷺ ، وعلى استقلاله الفكري الذي لا مبرر له ، ونرد كل مواضع ضعفه وكل أسباب إخفاقه إلى هذا الاستغناء الذي لم يكن إلا نتيجة الجهل ، أو الكبرياء القومية أو الحمية الجاهلية والعصبية العنصرية أو الوطنية ، وقد قال شاعر ايراني قديم :

« إن محمداً ﷺ هو شرف العالم وكرامة الإنسانية في الدنيا والآخرة ، والذي يأبى أن يتمسك بأهدابه ويمشي في ركابه ، ويطرح على أعتابه ، كتب عليه الهوان والصغار ، وضربت عليه الذلة والمسكنة » .

إن بعثته ﷺ هي الخط الفاصل الحاسم في تاريخ الإنسانية

ومصير الأمم ، لا يقاس السابق على اللاحق والماضي على الحاضر ، فليس من ولد عاش بعد البعثة المحمدية من الأفراد والأمم كمن كان قبل البعثة ، فكان لمن سبق هذه البعثة أن يصمم حياته كما يشاء وينهج لحياته منهجاً يختاره ، ولكن ليس لمن جاء بعده أن يصمم حياته كما يشاء وينهج لحياته منهجاً يختاره ، إن الله حرم على كل من آمن به وطلعت عليه شمس نبوته — التي لا أفول لها — أن يزدهر ويسود ، ويعز ويفلح إلا بالتمسك بأهدابه والمشي في ركابه ، وإن كلمة الرسول الخالدة التي سجلتها دواوين الحديث التي قالها حين سأله عمر بن الخطاب عن كتابة أحاديث اليهود: « لقد جئتكم بها بيضاء نقية » ، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي »[1] ليست كلمة محدودة المعاني قاصرة على الأحكام الفقهية أو العقائد الدينية ، إنما هي كلمة تشمل الحياة كلها والأمم والأجيال كلها ، وإذا لم يَسَعْ موسى إلا اتباع محمد ﷺ إذا أدرك عصره فكيف بأمة موسى وعيسى ، فكيف بالمسلمين أنفسهم ، ثم كيف بالعرب الذين بعث الله رسوله فيهم واختاره منهم وخصهم بالدعوة الأولى والأمانة العظمى !

هذه كلمة عجلى أيها الإخوان أملاها الإخلاص والحب والإجلال والشعور بالمركز العظيم ، الذي تتمتعون به في عالم الإسلام وفي تاريخ الإسلام ، ويجب على كل مسلم أن يعرف فضلكم

---

(١) الحديث بطوله رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان ، وهو حديث حسن بطرقه .

وسوابقكم وحسن بلائكم في الجهاد وفي نشر الإسلام ، ويتقرب إلى الله بحبكم والولاء لكم .

وأعود فأشكركم على هذا التكريم الذي لا أستحقه والذي إن دل على شيء فإنه يدل على الكرم الأصيل فيكم والسماحة التي طبعتم عليها ، وعرفت منكم في كل زمان ، والشيء من معدنه لا يستغرب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



الفهرس

بعض منشورات

المكتب الاسلامي

للطباعة والنشر

علوم القرآن

زاد المسير في علم التفسير ١ - ٩	للامام ابن الجوزي
البرهان على سلامة القرآن	للشيخ سعدي ياسين
التجويد وعلوم القرآن	للاستاذ عبد البديع صقر
ما دل عليه القرآن	للعلامة محمود الالوسي
احكام من القرآن	للاستاذ عبد الجبار الراوي
فوائد قرآنية	للشيخ عبد الرحمن السعدي
تفسير النصوص	للدكتور اديب الصالح

الحـــديث

التيسير شرح الجامع الصغير ١-٢	للامام المنــــاوي
أحاديث في الصحــــة	للدكتور نبيل الطويل
الاجابة فيما استدركته عائشة	للامام الزركشي
تخريج أحاديث فضائل الشام	للمحدث ناصر الالباني
تصحيح حديث افطار الصائم	» » »
سلسلة الأحاديث الصحيحة	» » »
سلسلة الأحاديث الضعيفة	» » »
صحيح الجامع الصغير (١-٢)	» » »
ضعيف الجامع الصغير الجزء الاول	» » »
» » » الجزء الثاني	» » »
صحيح الكلم الطيب	» » »
الكلم الطيـــب	للامام ابن تيمية
شرح حديث النزول	» »

الفقـــــه

روضة الطالبين (١ – ٨)	للامام النووي	الجزء
حجاب المرأة المسلمة	للشيخ ناصر الالباني	
خطبة الحاجة	»	»
حجة النـــبي ﷺ	»	»
صفة صلاة النبي ﷺ	»	»
احكام الجنائز وبدعها	»	»
آداب الزفاف	»	»
الاجوبة النافعة	»	»
المسائل المارديئية	لابن تيمية	
حقيقة الصيام	»	«
اصلاح المساجـــد	للعلامة جمال الدين القاسمي	
احـــكام الخلـــع	للدكتور تقي الدين الهلالي	
اقامة الدليل والبرهان	للشيخ محمد بن مانع	
الحلال والحرام في الاسلام	للاستاذ يوسف القرضاوي	

الطبعة الخامسة ، مزيدة ومنقحة

العقـــائد

الكتاب	المؤلف
الايمـــان	ابن تيميـــة
رفع الملام عن الائمة الاعلام	» »
الفرقـــان	» »
الرسالة التدمرية	» »
الواسطة بين الحق والخلق	» »
التوسل والوســـيلة	» »
شرح قصيدة ابن القيم	ابن القيم (١ ــ ٢)
التوحيـــد	للشيخ محمد بن عبد الوهاب
عقيدة الفرقة الناجية	» » » » »
شرح كلمة الاخـــلاص	للحافظ ابن رجب
لمعة الاعتقـــاد	للموفق ابن قدامة المقدسي
نصب المجانيق	للمحدث الشيخ ناصر الالباني
التشريـــع الاسلامي	للاستاذ محمد الصباغ
نقد القومية العربية	للشيخ عبد العزيز بن باز